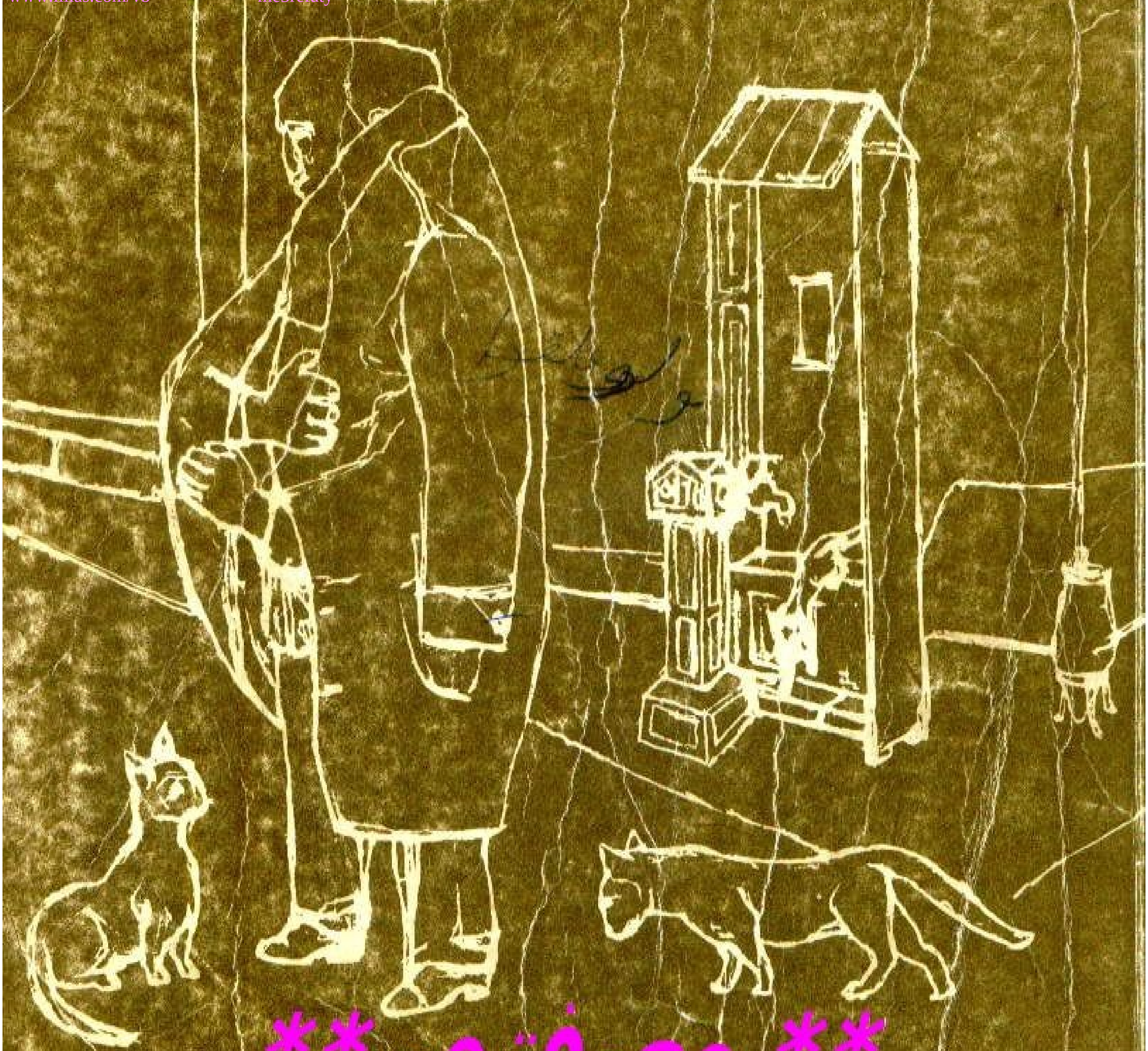


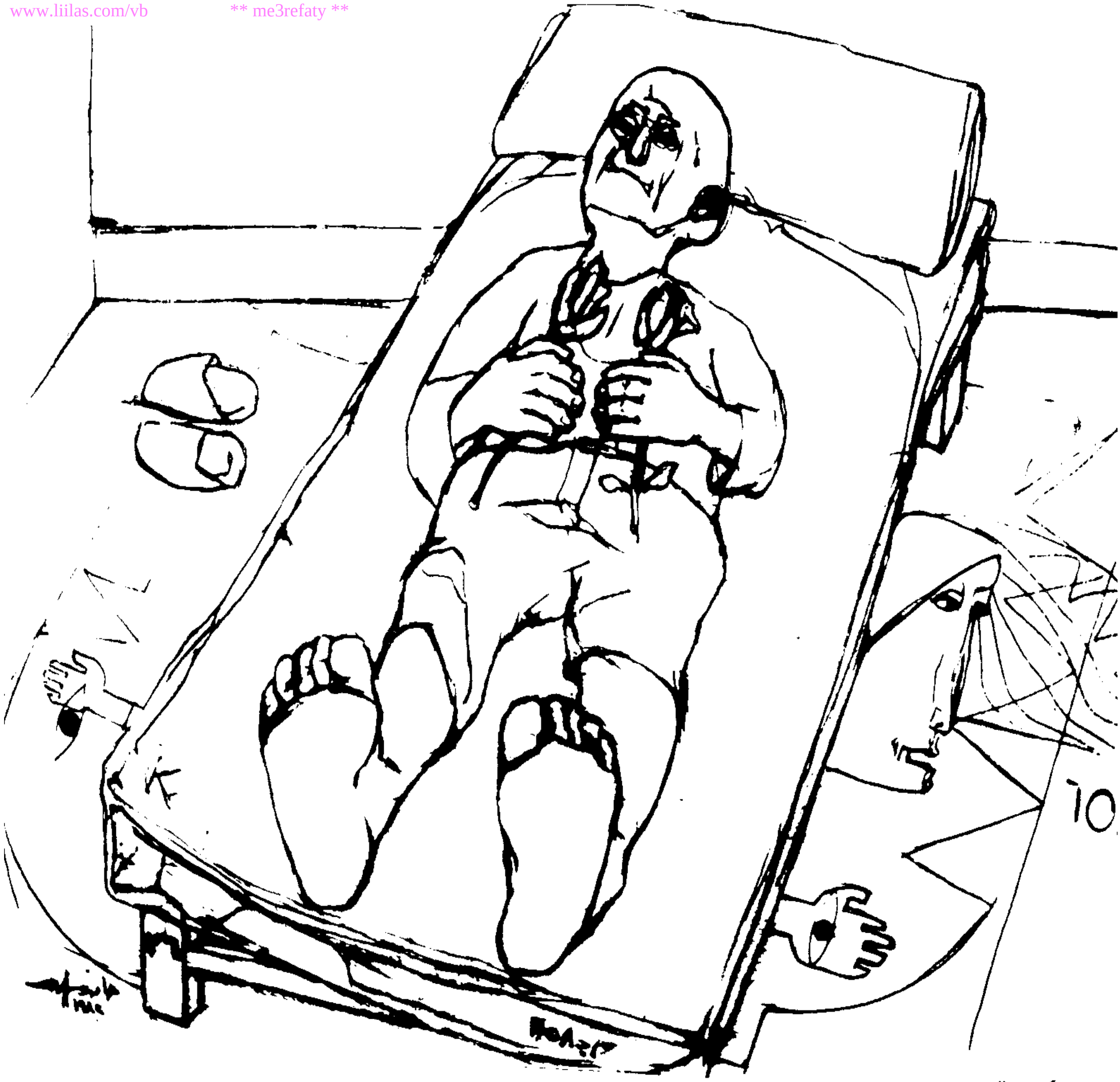
مكتبة
القصة العربية

الآتي

قصص د. محمد المخزنجي

رسوم حامد ندا

دار الفتى العربي
للنشر والتوزيع



مكتبة
القصة العربية

الآتــــي

قصص د. محمد المخزنجي

رسوم حــامـد نــدا

دار الفتى العربي
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ١٩٨٣م

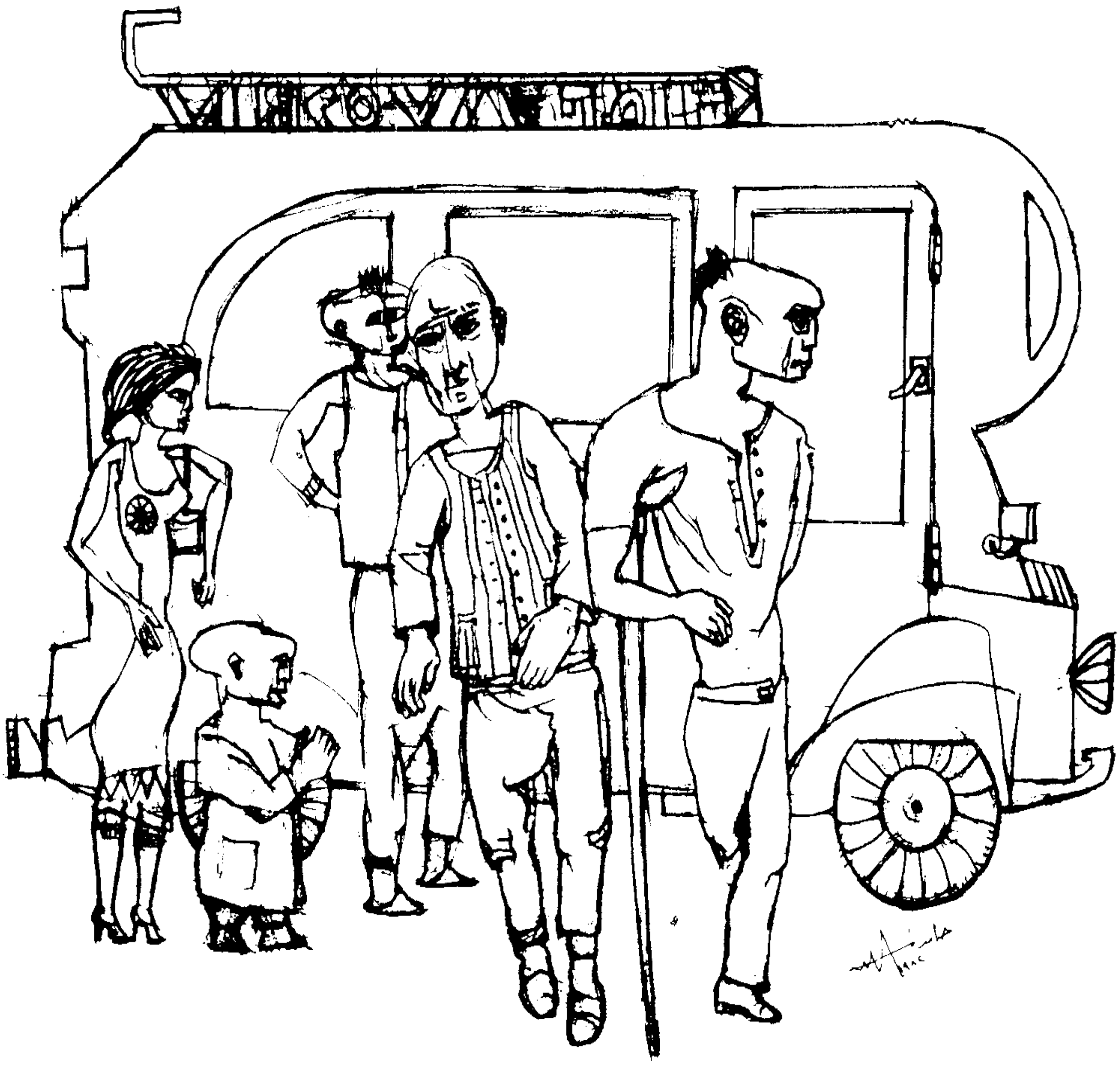
دار
الفتى
العربي
للنشر والتوزيع

الآتـــي

قصص د. محمد المخزنجي
رسوم حـــامد نـــدا



السّباق





كان يجلس وحده إلى جوار السائق، ولم نكن نرى إلا رأسه وكتفيه. ونحن مزدحمون في المقعد الخلفي، ولعلنا لهذا - في البدء - تضايقنا منه، ولأنه أيضاً كان يحرّض السائق على السرعة، والمروق من بين السيارات الأخرى. بل إنه شرع في تحريض سائقي السيارات الأخرى، على الإسراع بالإشارة، والتلويح. وحتى بإخراج رأسه وكتفيه من النافذة والزّعق بهم.

لا ندري متى - فجأة - أحببناه، ورغم كل شيء. إذ خفّف عنّا سأم السفر، عندما نقلنا بخفة حركته وطرافة تعليقاته، إلى حالة الموجودين في سباق على الطريق. وأصبحنا مثله معجبين بالإنسان: العفريت، المطاط، الطيار، الخفيف، الحُلو.. وهذه الصفات للإنسان كلها، كانت من صنع الرجل، وهو يتكلم، ولا يكف عن الحركة.

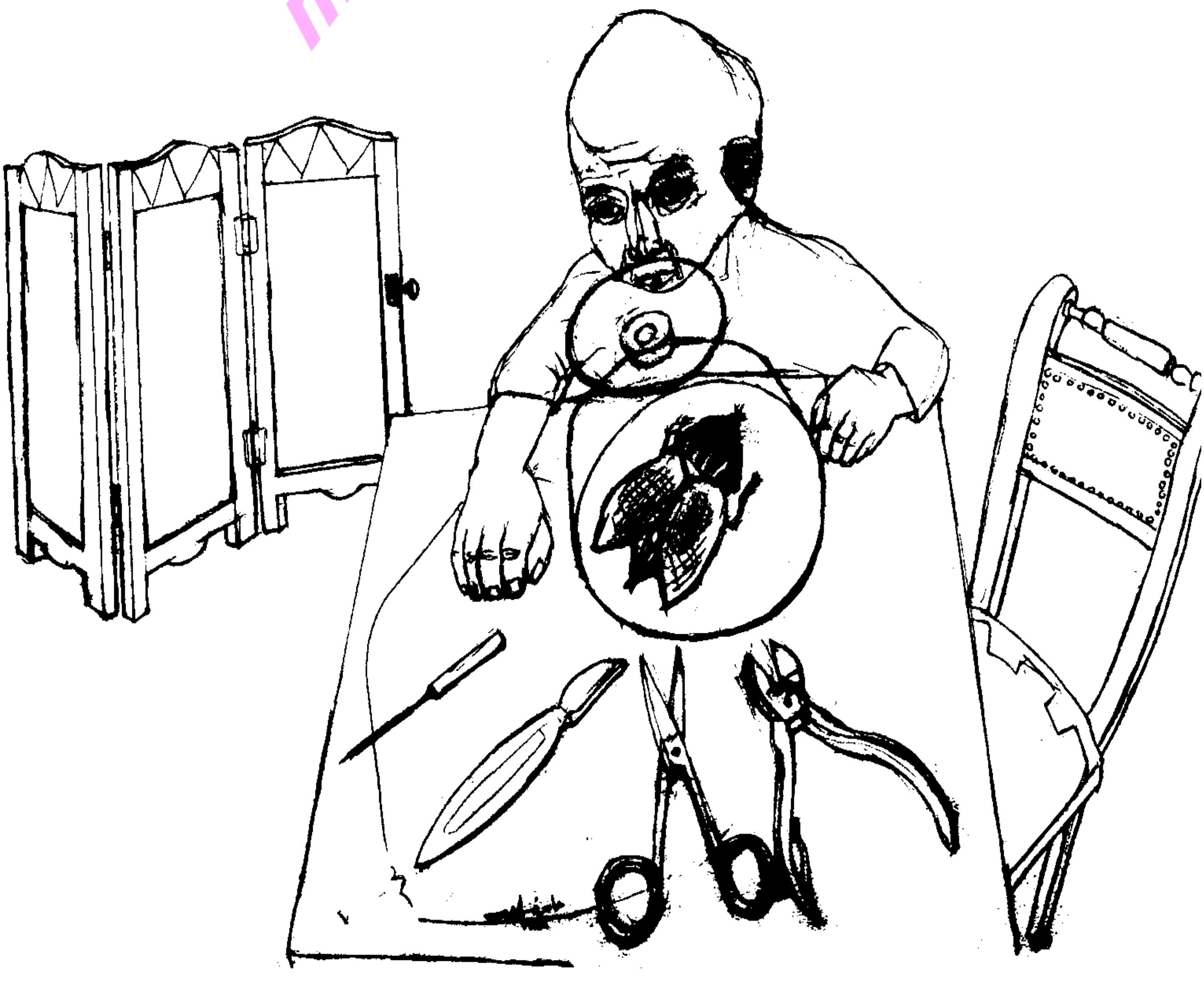
عندما وصلنا، كان الرجل أول من نطق «الحمدُ لله على السلامة»، وكان أول من نزل.. فتح الباب، وانحنى يشد من دواسة العربة شيئاً طويلاً.. عكازا رأيناه! تأبطه ومضى يتقافز ولم نر له إلا قدماً واحدة. ولم يكن هناك وقت لنتبادل، نحن الركّاب الآخرين، النظرات. إذ تفرقنا على عجل.







ذبابة زرقاء





أكره الذباب، وأكره بالذات طنينه، وتكون كراهيتي لهذا الطنين غير محدودة، وأنا طبيب استقبال مناوب، أجلس ضجراً في فراغ الانتظار، بالليل، وبياض الجدران يحاصرني.

كان طنينها بحجم طنين مائة ذبابة مجتمعة دخلت تطير في المكان حولي.

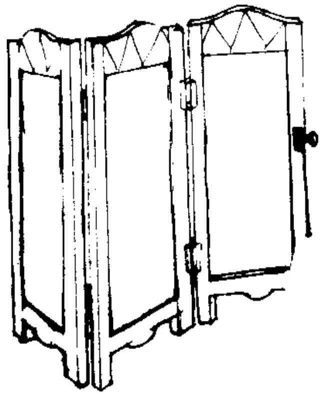
نهضت أخلع معطفي مغيظاً، وضربتها به، فهوت.. وكدت أرفع قدمي لأسحقها، لكني وجدتها ذبابة كبيرة ملونة، فتركتها تلم نفسها، وتعاود الطيران.

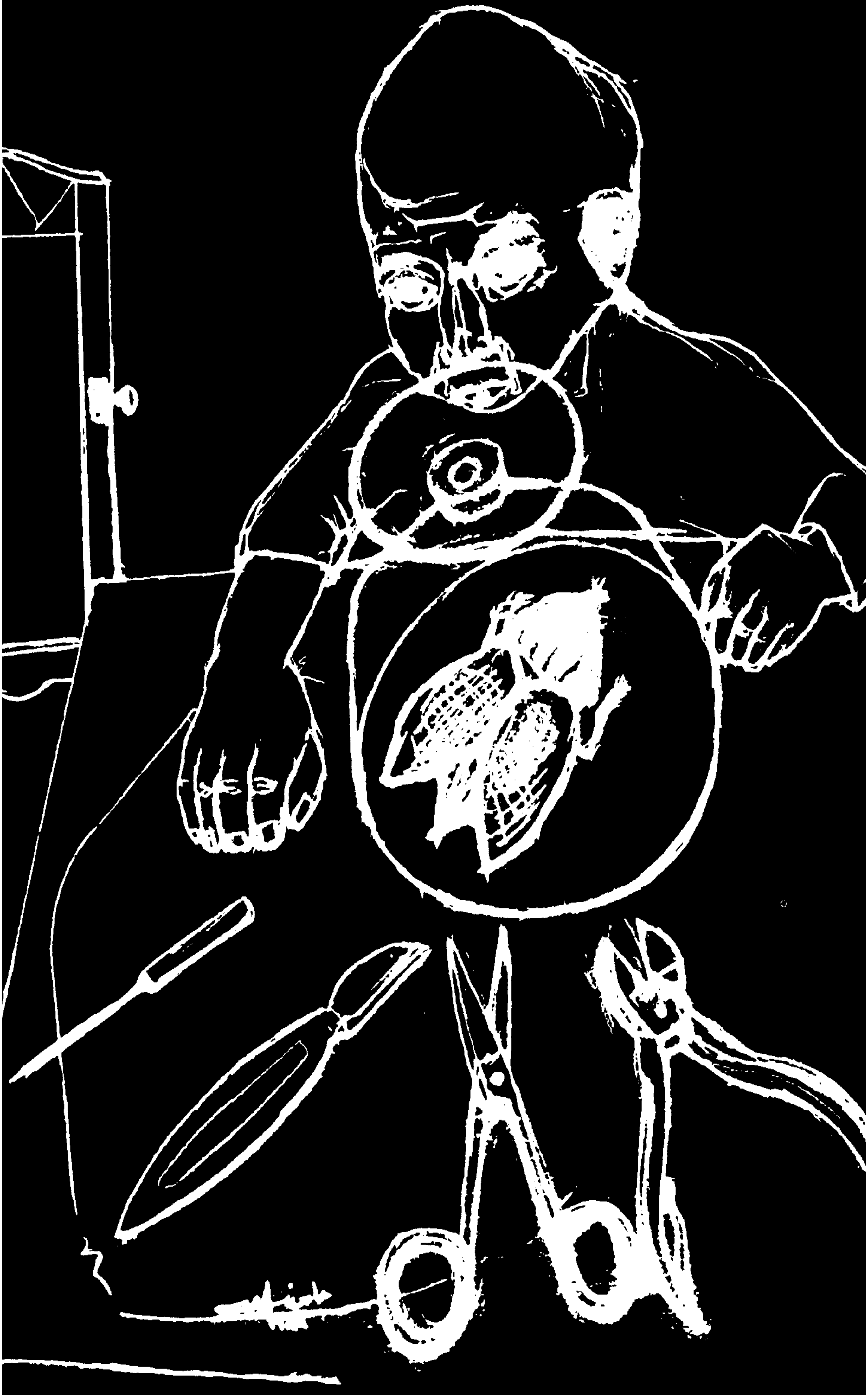
أحضرت كأساً زجاجية، وحملت معطفي أطاردها، وعندما كانت تطير فوق المنضدة ضربتها... وقعت، وقلبت عليها الكأس، ورأيتها من خلال الزجاج كبيرة وعيونها كنصفي كرتين من بلّور متلاصق، يعكس في تقلبه شتاتاً من ألق الألوان، وكانت على بدنها مربعات منمنمة أيضاً تتناسق كأنها رقعة شطرنج، وتماوج تحت جنيحاتها السلوفانية بلمعة معدنية زرقاء.

أخذت الذبابة في محبسها تتلمس مخرجاً.. تتحرك في اتجاه، فيصادفها زجاج الكأس، وتكرر المحاولة في اتجاه آخر، ثم في اتجاهات أخرى، ولا تكف، ولكنني سئمت تكرار ذلك.

أحضرت بخاخة «البنج الموضعي» ورفعت الكأس قليلاً، ثم أعدتها بعدما رششت بخة كثيفة بداخلها، ورأيت الذبابة الزرقاء تُجن في بحثها عن مخرج، ثم توقفت وبدا أنها تموت.

تحركت فجأة حركة دائرية وهي تذبذب مؤخرتها. ومع كل ذبذبة راحت تضع بيضة.. بيضة صغيرة كرأس دبوس ملساء وبلون «الكريم».. بيضةٌ، اثنتان، ثلاث، أربع، خمس.. ست بيضات وضعتها. وسكنتْ.







الأوتَاد





ثلاث شجرات أمام البوابة، شجر غريب، ساكن، وقور، تمتد **فروعه**، وما تلبث أن ترفد فروعاً تتدلى متجهة إلى الأرض.

يخبرني الجنايني الطيب العجوز، باسماً، أنها شجرات نادرة من نوع « التين » ويشير إلى الفروع المتجهة نحو الأرض، ويشرح لي كيف أنها ستغوص في التربة، كالخيمة: تقوم على عمود واحد، وتشدها عشرات الأوتاد.

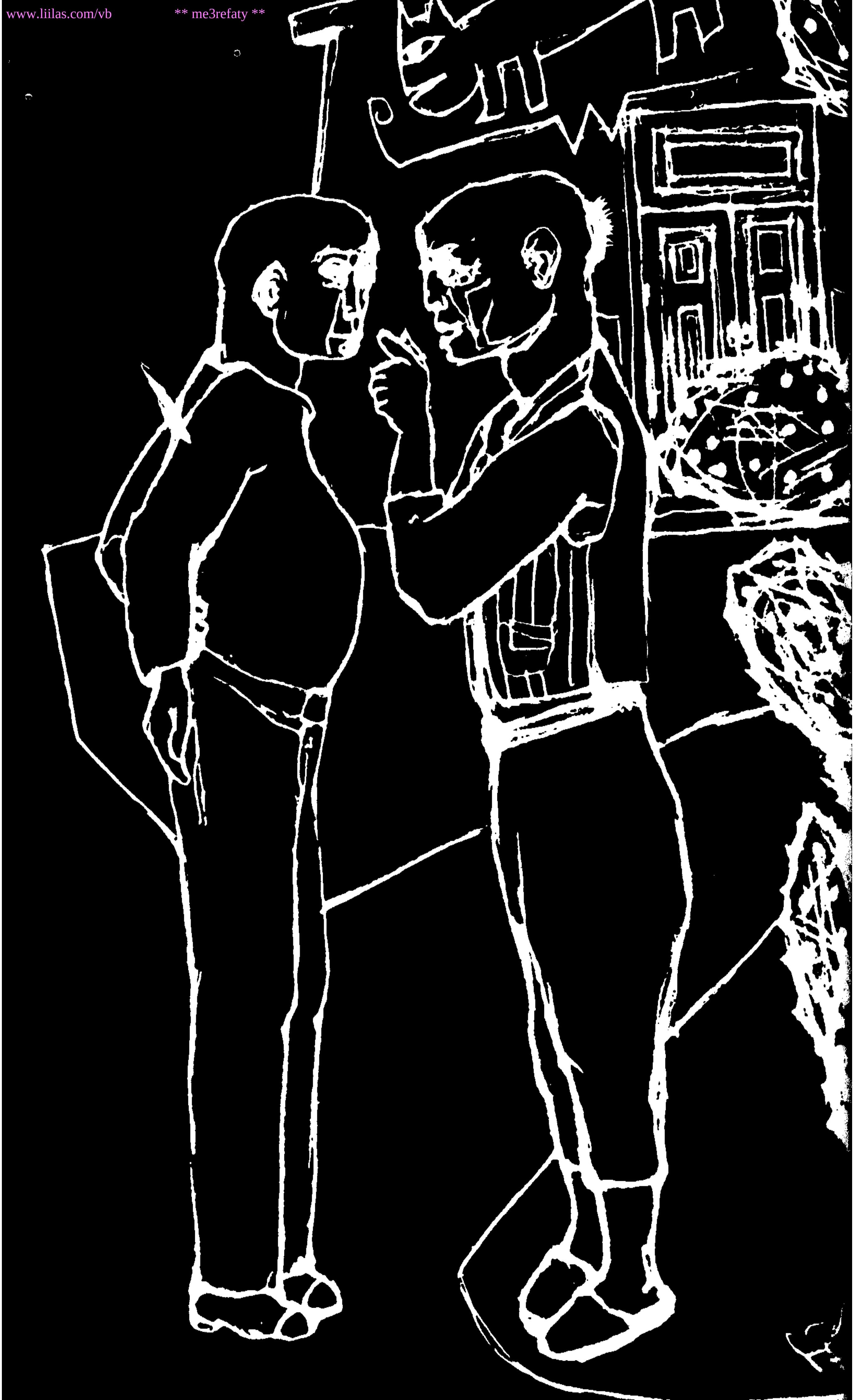
جاءوا « يجملون » المدخل برصيف من البلاط الأسمنتي.. تركوا حول جذوع الشجرات فراغاً قليلاً، لكنهم حالوا بين الفروع الهابطة والوصول إلى التربة.

يهز العجوز رأسه محتجاً، متمتماً: « غلط، أكبر غلط »، فلا أعرف سبباً لقوله.

في مدة وجيزة طالت الشجرات.. سمقَت كما لم أعتد أي نوع من الشجر. أقول للعجوز عن ملاحظتي، فيظل على حزنه المحتج وهو يشير إلى الفروع المدلاة، وقد عجزت عن الغوص في بلاطات الأسمنت، فجفت هشيماً، ثم يشير إلى أعالي الشجرات مهمهماً: « هم م.. صحيح طالعة فوق.. فوق في السماء، لكن.. ».

ويتجه إلى الجذوع قائلاً وهو يهزها: « ضعيفة جداً في الأرض »، ويدهشني إلى حد الفزع أن أرى يديه الضعيفتين تحركان الشجرات السامقات بيسر، وكأنه ينفخ في قشات طفت على ماء!







العاصفة الترابية





اربدّت الدنيا.

شعرت بتبدلها إلى البرد، ثم سمعت الريح تَصِفُر في النوافذ، وأغصان الشجر، وتراب الشوارع.

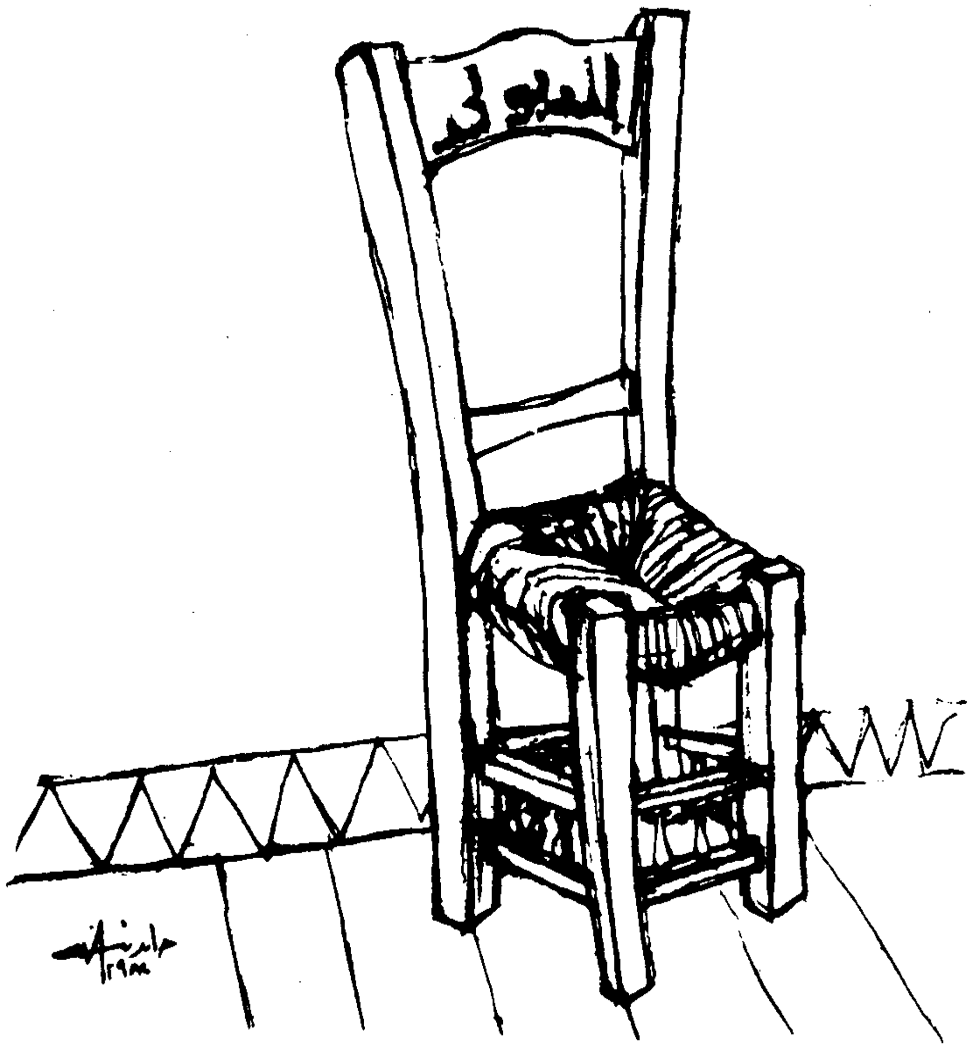
لحظة، وبدا أن كل شيء يختنق: عتمة صفراء شاملة، غلّفت كل شيء: الشمس والأفق، والشوارع، والناس، والبيوت.

إنها العاصفة الترابية. قالوا، وقالوا: «لا يذهب بها إلا المطر»، فأغلقت النافذة،ومن وراء الزجاج رحت أنتظر هطوله.

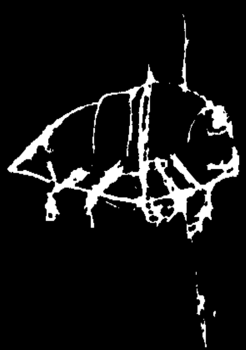
الدنيا تمطر.

قلت: هذا فأل حسن. فتحت النافذة وبسطت كفّي للقطرات، كشأن فرحي القديم بالمطر، فرُوِّعْت: إنها تمطر طيناً؟!

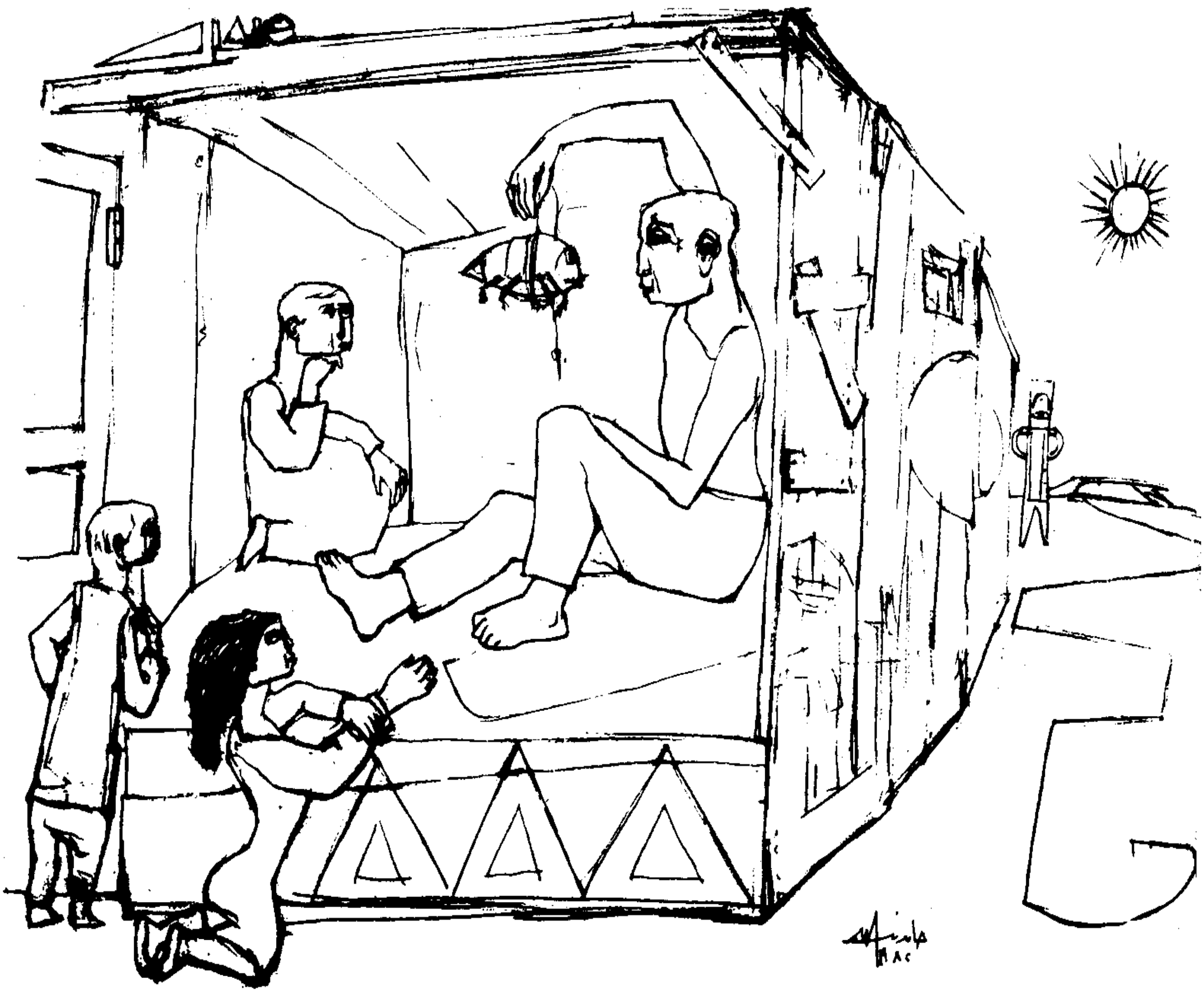
(وأنا مشغول بفزع الماء الأسود في كفي، فاتني أنها: حول الشمس، في الأفق، في فضاء الشوارع، وأمام واجهات البيوت، تصفو بطيئاً بطيئاً، لكنها باليقين.. إلى شروق).

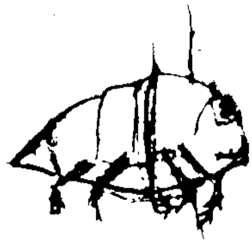






عدو الشمس





كان يغني لحنا غريباً عن خنفساء يملكها، وهي بحجم الشمس! وعندما سمعناه لأول مرّة ضحكنا.

كنا نلعب في الساحة المشمسة أمام بيتهم، وهو قابع وراء الشيش كعادته، يحسد لعبنا بعيونه القرنفلية الحدقات، التي تطرف مرتعشة في النور.

كان أبيض، أبيض كله حتى الشعر والرموش، ولم يكن يخرج في النهار، بل يخرج في الليل فقط. وكنا ندعوه: «عدو الشمس».

ظل يغني للخنفساء التي بحجم الشمس، فقفزنا إلى النافذة، ننظر إليه في الداخل من بين الخصاص غير مصدقين.

كان واقفاً بوسط الحجرة الشحيحة الضوء، وقد أمسك بطرف خيط يتدلى من يده، وفي نهاية الخيط رُبطت خنفساء.

كان يرفع الخنفساء بالخيط حتى تقترب من وجهه، فينظر فيها بعين ضيّق ما بين جَفنيها، بينما أغمض عينه الأخرى، وكان يغني ويدور، كأنه يدور حول الخنفساء التي لا يبعدها عن عينه نصف المغمضة.

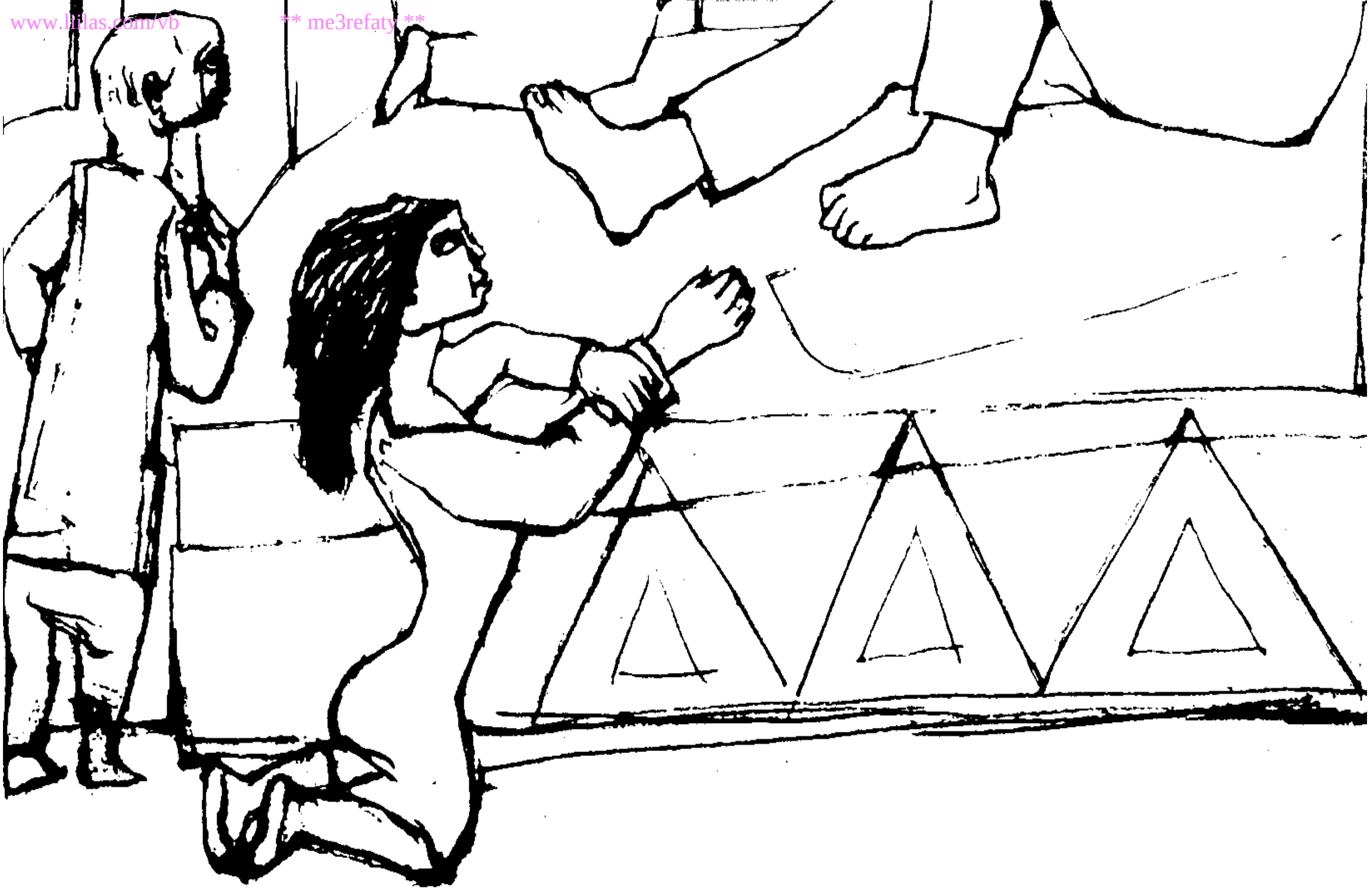
نزلنا عن عارضة النافذة مستغربين، لقد رأينا معه خنفساء عادية، كمئات الخنافس التي رأيناها من قبل، وسحقناها بالحجارة، وبالأقدام. لكنه - هو الذي ترعبه الشمس - يزعم أنها - الخنفساء - بحجم الشمس. فتحديناه أن يخرج حالاً، وقد كانت الشمس - نهارَها - حُلوة وحامية.

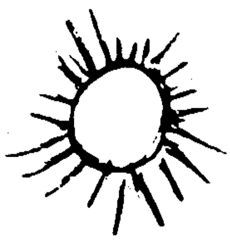
ولقد قبل التحدي، وخرج!

خرج، وكان غريباً غايةَ الغرابة. فتح الباب بيد مرتعشة فتحة صغيرة، ثم فتحة أكبر، فأكبر، وخرج يخطو في تعثر، مباعداً ما بين ساقيه، مقوساً ظهره، يرفع الخنفساء بالخيط، ناظراً فيها بالعين نصف المغمضة وحدها، يغني، يدور، ويقاوم ارتعاشاً لم يكن ليستطيع إخفاءه. ويكرر زعمه أن الخنفساء بحجم الشمس.

اقتربنا منه غير مصدقين، وكان بنا فضول غالب لمعرفة حقيقة ذلك، فلم نكن نتصور أنه يستطيع الخروج بالنهار والشمس حامية. توددنا إليه بأصوات خفيضة، نسأله أن يُرِيَنا كيف تكون الخنفساء بحجم قرص الشمس!







كان يكمل إغماض العين نصف المغمضة، فيصير مُغمض العينين، يمد ذراعه مبعداً الخنفساء عن وجهه، لنرى.

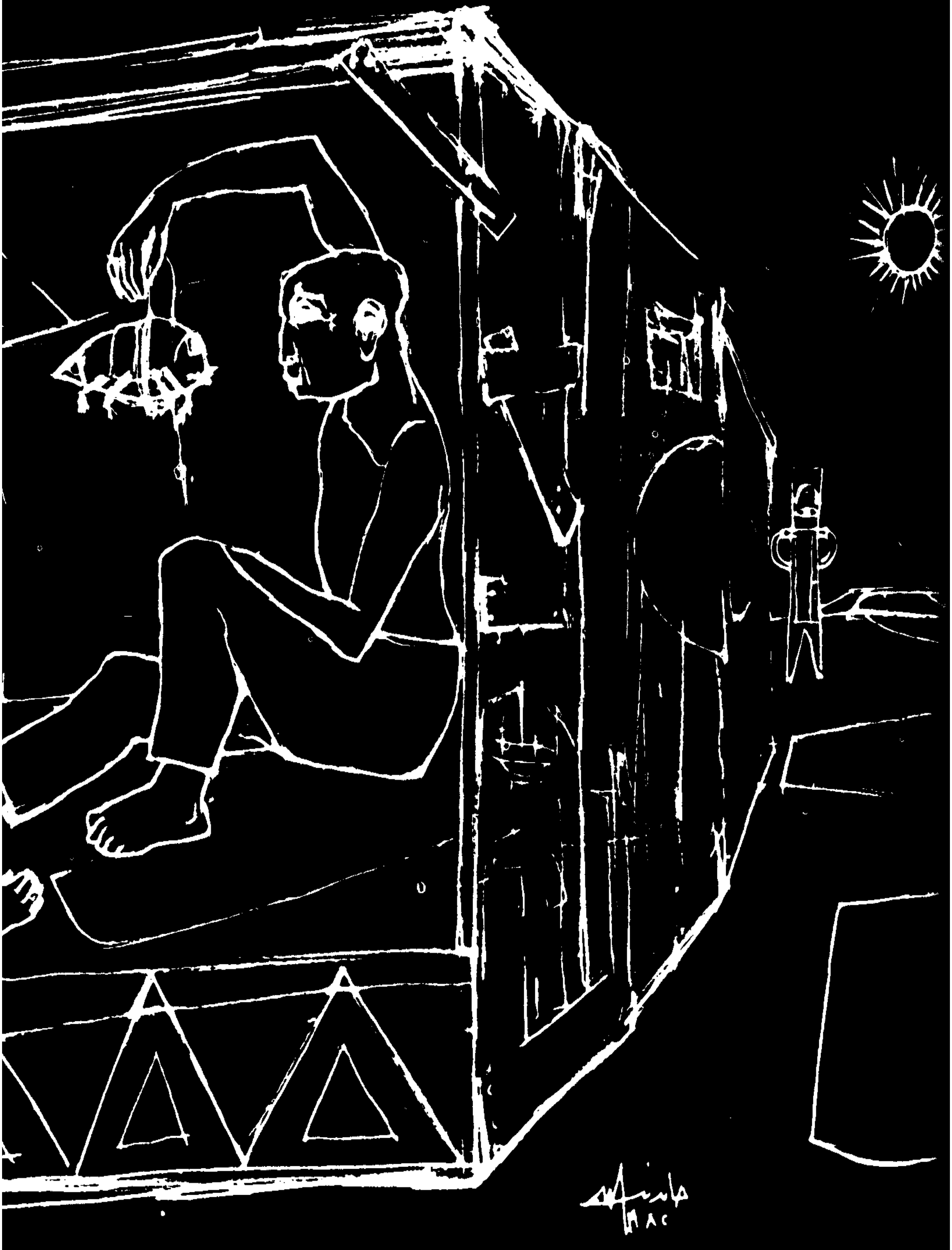
وكنا نفعل مثلما رأيناه يفعل. وبالعين نصف المغمضة، نقترب من الخنفساء، وننظر.

ننظر فنرى الخنفساء وقد تدلت أمام وجوهنا تتأرجح. نقترب منها بالعين، فتكبر نقترب أكثر، تكبر أكثر. ثم نوجه رؤيتنا لقرص الشمس، فنرى الشمس: صغيرة وبعيدة، وفوقها الخنفساء كبيرة، كبيرة جداً، وأرجلها هَوْلاً شعرها أسود تنبش حافة الوهج العظيم الذي تضاءل، وتكاد بالسواد تخفيه!

وخفنا.

أخافنا ما رأينا، ونفَّرتنا رائحةُ الخنفساء الزاكمة النتنة، فجرينا بلا شعور. وبلا شعور توقفنا على مَبعدة منه، ورحنا نلُمُّ الطوب من تحت أقدامنا الصغيرة، نرفعه في أيدينا، نهدده أن يدخل بيته، وإلا رميناه، ونحن خائفون.

كنا خائفين حقاً، خائفين أن تكون الشمس التي نعرفها قد صارت بهذه الضآلة، والخنفساء بكل ذلك الهَول.





الرجل الذى نسخر منه





في النهار لم نكن نراه.. فقط: نسمع صوته الرديء كصراخ الماعز، يأتي من خلف الباب المردود، أو من خلال فرجة كالخيط بين مصراعي الباب إذ يواربه، ليتفق مع (زبون) جاءه ليزين واجهة بيت، لواحد من الحجاج العائدين من السفر، أو يهيئ لافتة لدكان سيتم افتتاحه.

يتوقف لعبنا والصياح حيناً، ونحن نسمع ونراقب، حتى يتم الاتفاق. نعرف المكان من حديث الرجلين، وندون العنوان في الذاكرة، ونردده حتى لا ننساه، لأننا ندرك أن في الليل، في المكان المتفق عليه، سيكون السهر.

تغطس الشمس أمّ النهار، ويطفو الليل أبو النجوم والظلمة، ونحن بقرب بيت الرجل.. ننتظر..

وها هو ذا الباب يفتح، والرجل يخرج بهيئته العجيبة، فنكتم الضحك متهامسين. إنه طويل طولاً مفرطاً، رخو كأنه من عجين، أبيض كله بياض الشمع، حتى شعره والرموش. عاري القدمين لا يلبس حذاء أبداً (لأن قدميه كانتا أكبر من أي حذاء يباع)، ونحن نسخر منه.

يخرج معلقاً في كتفه اليسرى سلمه المزدوج، وفي يُمناه الدلو الملطخ بألف لون ولون، فيه العلب والفرش.. يمضي ونحن وراءه..

نصطخب هُزْءًا به، وضحكاً عليه، فيتوقف، لنتوقف، ثم يجري وهو يرمينا بالشتم والطوب، ونعود لنمضي وراءه من جديد، عندما يعاود المسير.

ها هو ذا الرجل الأبيض كله، الرخو كأنه من عجين، الطويل الطويل، بقدمين عاريتين شائهتين.. يفتح سلمه المزدوج فينتصب كالرقم ٨ فوق الأرض، وقمته بإزاء الحائط العالى، الأجرد المعتم.

يخلط الرجل ألوانه، فيغلق أفواهنا دون أن يلمسها بيده التي (تدوّر) الألوان.

يرتقي السلم، فيأخذ بصرنا المشدود إلى مواطئ قدميه، العاريتين، الصاعدتين.

يقف هناك في الأعالي، فتنجذب إلى يديه وجوهنا المتطلعة».

يتجلّى باللون والفرشاة، فينطق الحائط ويضيء - في الليل تحت





يده - بكلام، ودنيا من خطوط وألوان، يرسمها.

ها هي ذي سموات فيها شموس وعصافير، وبحار تطل منها عرائس البحر، وصحارَى تركض فيها الغزلان، وغابات بشجر وثمر وحيوان وطير..

وها هو ذا قد سحرنا.. نَنْشدّ إليه، ونقترب منه. يفزع من لمتنا أصحاب البيت أو الدكان. يطردوننا. عندئذ.. نحتمي به، ونهتف باسمه. يعتقوننا لأجل خاطره، عندما يومئ لهم وهو في الأعالي، تحيطه هالة من فرط الثقة بالنفس، والناس - تحت - تطريه:

« الله الله عليك »

« الله ينور يا عم »

« فنان والله فنان »







اليمامة المضروبة





وأنا صغير أجوب الخلاء، أرفع رأسي، إذ أسمع فوقي رفيفاً مضطرباً لطائر يمرق. إنها يمامة مضروبة، تهوي.

ها هي ذي فرصة سانحة للحصول على يمامة بلا عناء، وأطير وراءها.

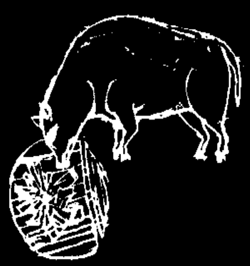
هأنذا أجري، واليمامة تهوي. ضربها أحدهم دون أن يصيبها في مقتل (أفكر في كونها ستقع بمكان قريب).

جناحها مضروب، لكنها عنيدة. أجري أنا - تحت، وترفرف هي فوق. تهبط رويداً رويداً حتى أكاد ألمسها. أرفع يدي قافزاً لأنالها، لكنها تنفلت. تنطلق بأسرع ما تقدر، وتسقط من جناحها المضروب قطرة حمراء ساخنة، تبل يدي. تطير فوق حقل مشتول. أخوض لألحق بها، لاهثاً، فتنغرز قدماي في الطين! ها هي ذي تبتعد وأنا مغروز. أدرك أنها أفلتت وأنني لن أمسك بها أبداً. أمسح قطرة دمها التي جفّت وغمِقت على يدي، وهي - اليمامة المضروبة - أراها هناك،

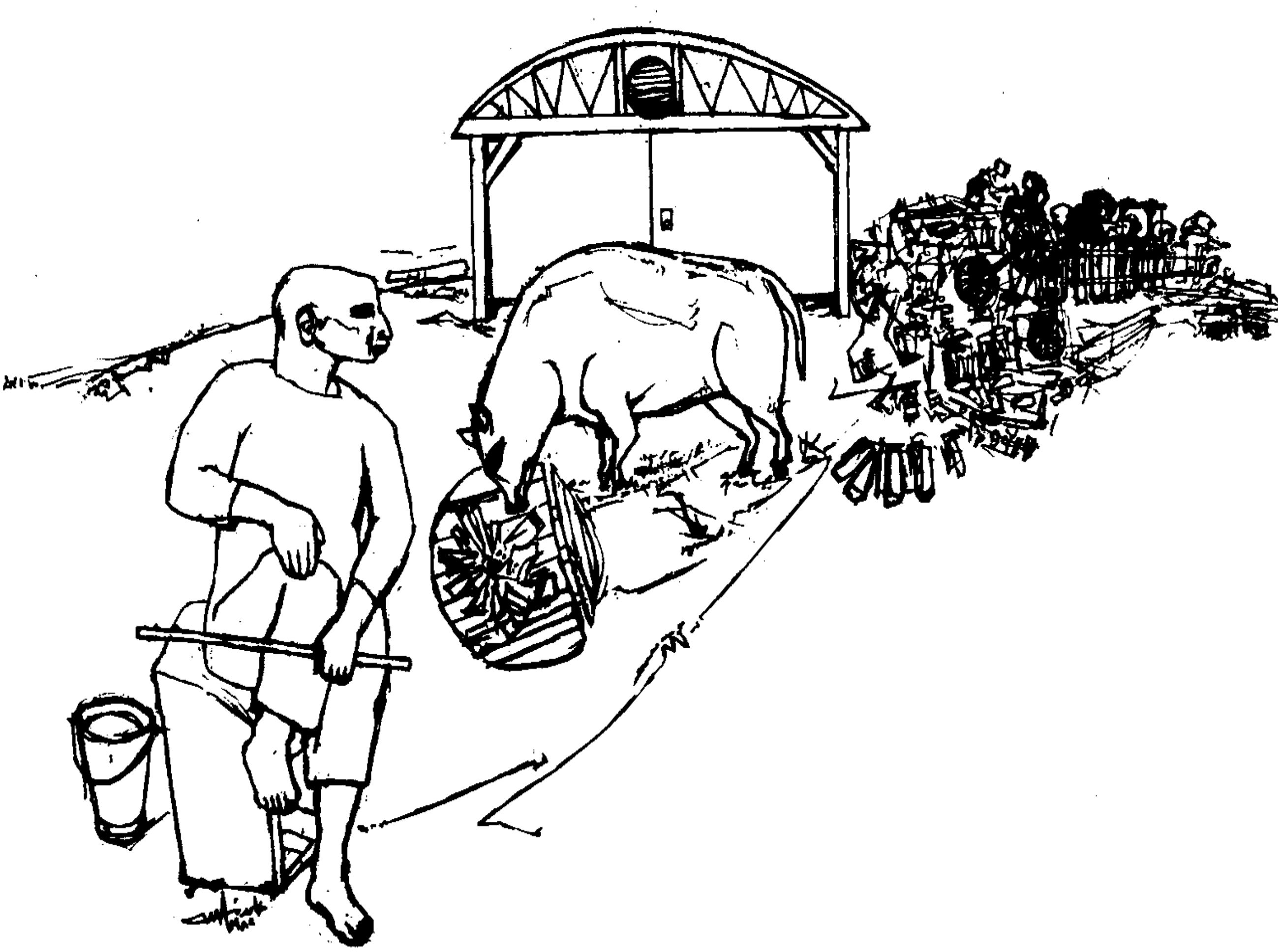
نقطة رفيعة.

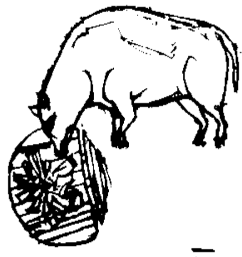






الخنازير





وأنا أجوب الخلاء، أكتشف أنني فجأة في مواجهة حظيرة للخنازير.

هاكم سورها:

دائرة من رقع الصفيح الصدئة المتباعدة - أنقرها بطرف سبابتي فتمتلئ بالثقوب - تقوم على جذوع أشجار قميئة ميتة، وعروق خشبية نخرها السوس. لكن يبدو لي أن الخنازير لا تريد الخروج، فهي لا تنطح هذا السور الهش، لينهار وهي لا تتسلل خلال فجواته الكثيرة، لتنطلق.

وهاكم الخنازير:

أبصرها في ازدحام شديد، برغم انفساح المكان، تمشي متلكئة بليدة، تتلاطم أجسامها البرميلية تلاطماً مكتوماً، لا تعبأ به، وأبوازها تعمل في الأرض الزلْقة. فأعجب لكونها تأكل من حيث تدوس، وتمضي، وتنام. تأكل القمامة، وتظلها غيوم الذباب.

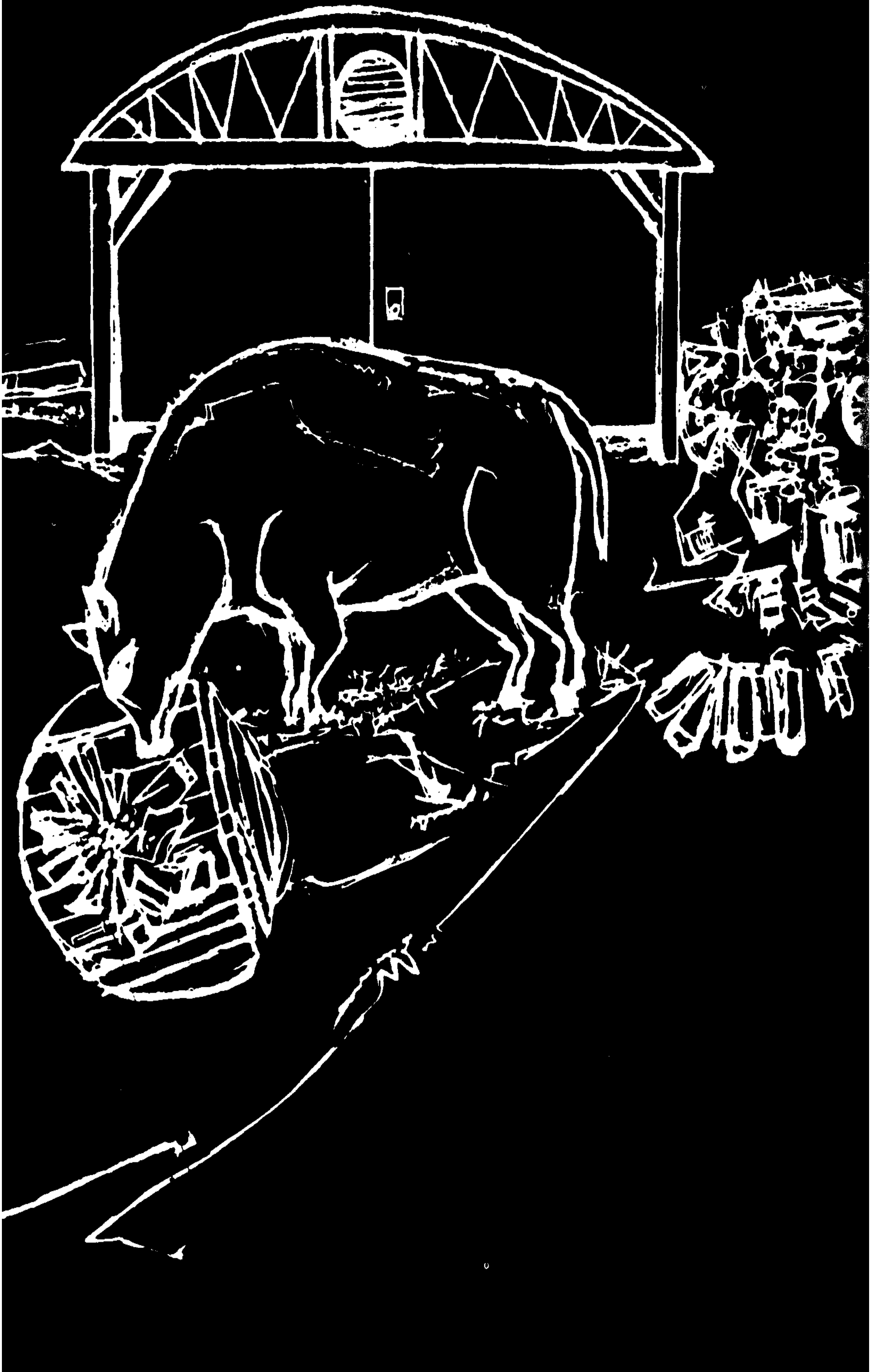
وهاكم الراعي:

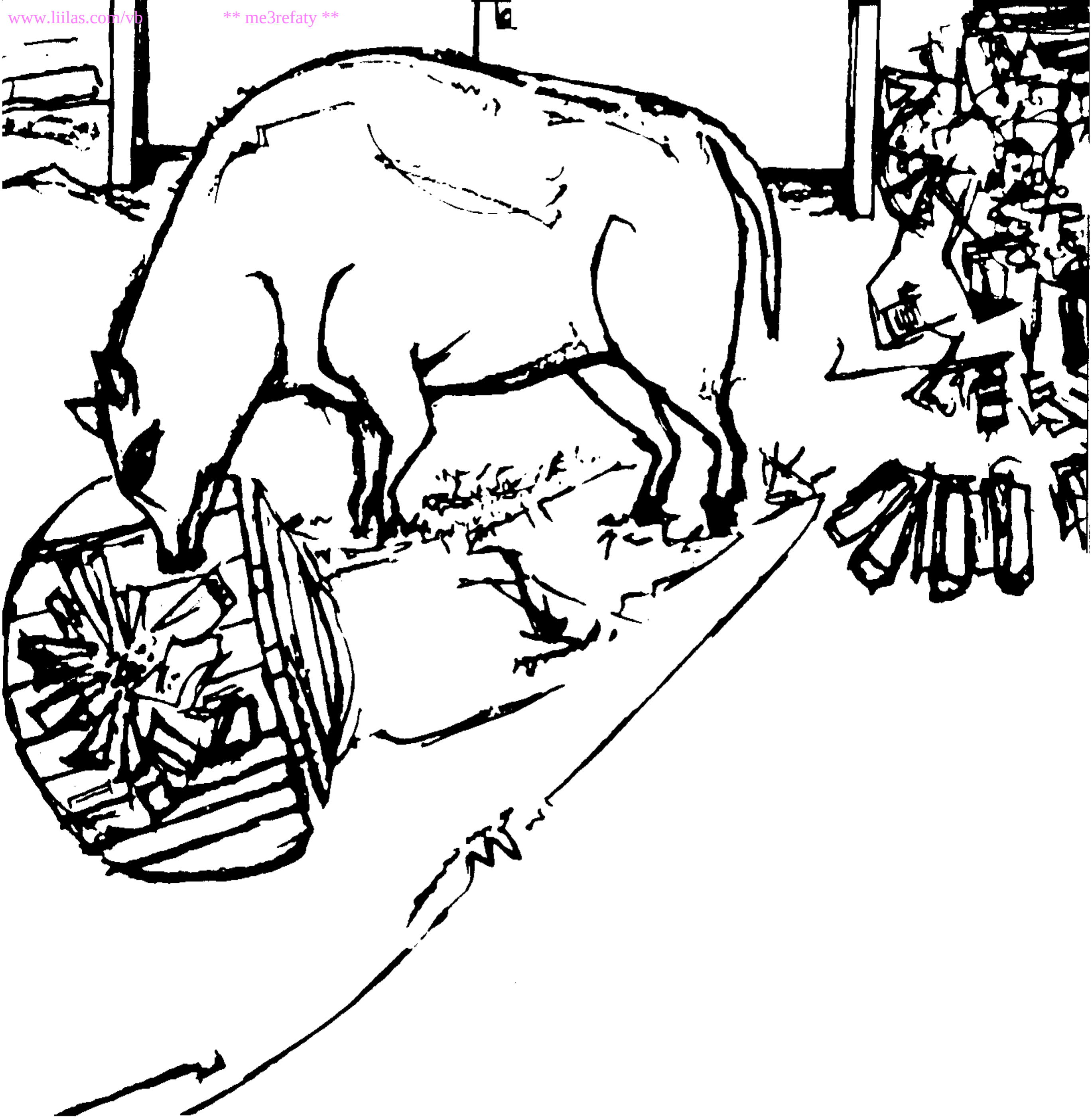
يدخل رافساً باب الحظيرة المتهالك، مُرْبَدَّ الوجه، في يده العصا.

وهاكم الخنازير والراعي في جوف الحظيرة:

يفرقع الراعي بلسانه، فتسمع الخنازير، تأتي متسارعة تتلاطم، تتحسس قدميه بأبوازها، وهي تنتظر عطاياه من القمامة، لكنه - الراعي - فجأة يمسك بأحد الخنازير من ذيله، وينهال عليه بالعصا، فيجري، ويلاحقه الراعي بالضربات في مسار دائري، وفي مسار دائري - قليلاً قليلا - يعتقه..





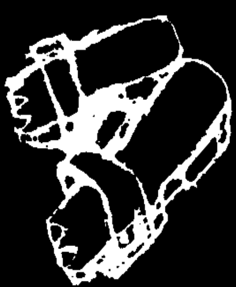


يظل يجري – الخنزير المضروب حتى بعد أن تتوقف الضربات – في دائرة، وهو كلما مسّ خنزيراً في طريقه يتبعه الأخير، وتتشكل حلقة باتساع فسحة الحظيرة كلها. حلقة متصلة من الخنازير التي تجري، دونما هدف، غير أن كل خنزير يخشى أن يكون الخنزير الجاري أمامه فارًّا من خطر داهم، فهو يتبعه بالفرار.

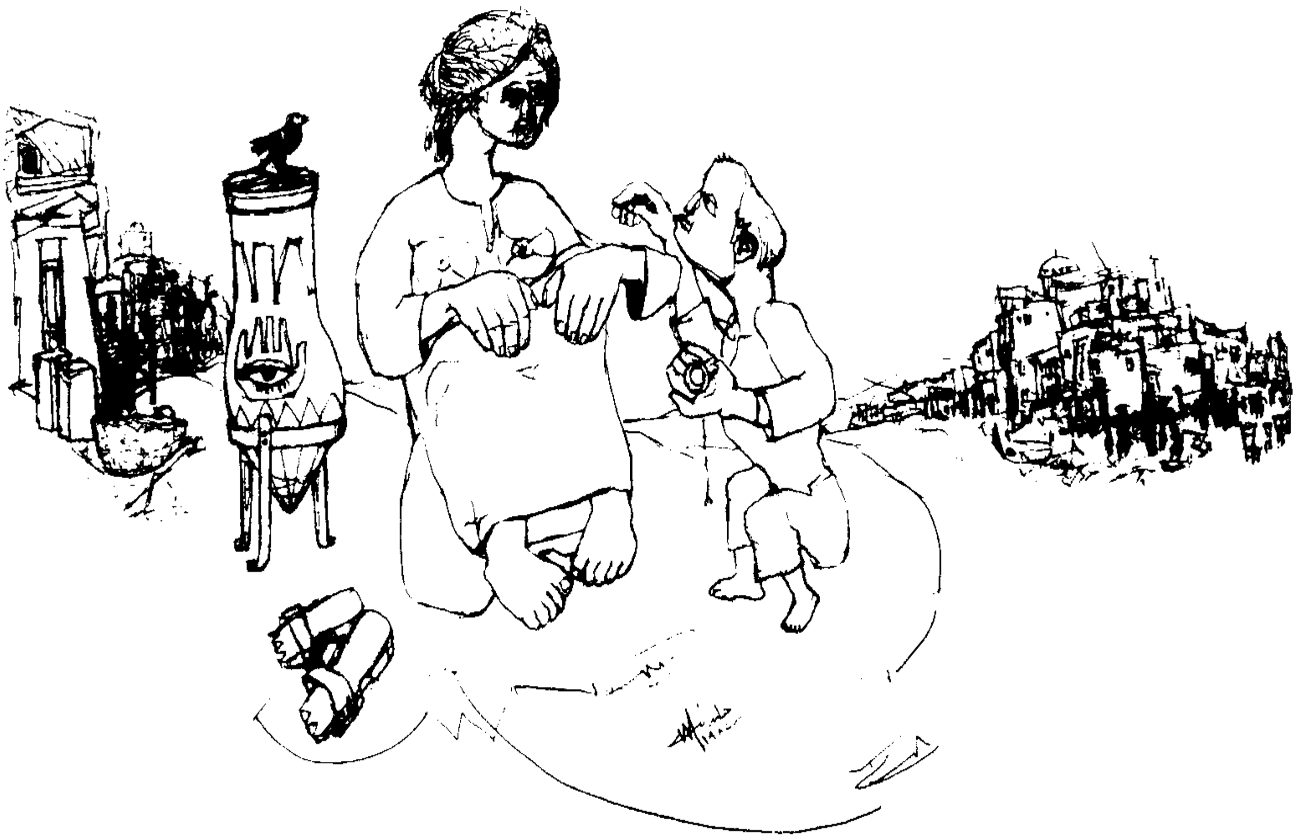
ثم أرى راعي الخنازير يذهب، ويُحضر لنفسه مَقعداً، ويعود ليجلس بالقرب من حلْقة الخنازير الدوَّارة، والعصا في يده.

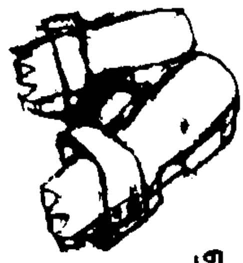
إنه – وهو جالس – يهوي بعصاه، دون أن يصوّب، فيضرب على هذا النحو كل الخنازير التي تقدم نفسها للعصا ،وهي تجري مطأطئة، عمشاء .





قمرها الذهب





تلمحون هذه الأشباح الداكنة - كبيرة وصغيرة - تتحرك هنا وهناك، وتتوقف بين الكومات وتصاعد دخان الحرائق الصغيرة، وانقضاض الحِدَإِ والغربان التي تحلق منخفضة.

إذن لست وحدي، في تل القمامة، وأنا صغير أجوب الخلاء معي بعض من البشر، والفئران، والقطط الضالة، والكلاب.

واحد - من كثيرين يهيمون - تلوح عليه أمارات الجوع والبلاهة، يعثر على برتقالة وسط كومة نبشها، يمسحها في ثوبه الخلَق المتَّسخ، ويقضمها بقشرها. كلب يعثر على عظمة، يهز ذيله فرحاً. حدأة تنقضّ على فأر. وامرأة عجوز فوق كومة إلى جواري تناديني، تناديني بالإشارة، وبلا صوت، فأذهب إليها (أفكر في كونها إمّا خرساء، أو أن لديها سراً تكتمه).

ها هي ذي تمتلك صوتاً عجوزاً يقضّ، وهي تخافته بأقصى ما تستطيع. تسألني إن كنت أعرف الذهب، الذهب الخالص، وتبسط بالقرب من وجهي - محاذرة أن يلمح هذا أحد غيري - كفها اليابسة، المسودة بالوسخ، فيها كريّة صغيرة مذهبة، تريدني أن أفحصها.

إن في وجهها سنين كثيرة، وكللاً، وشيئاً أشبه بجنون الفرح المفاجئ، وهي تتلفت.. تثرثر بحديث عن أنها ستبيع القمر الذهبي الذي عثرت عليه، وتشتري بيتاً، وثوباً جديداً، وطعاماً طيباً، وسجادة للصلاة.

وأنا أمسك بهذا الشيء المذهب بين أصابعي: إنه زر من الأزرار أو شيء من هذا النوع. مذهّب وقد نقشت عليه ملامح قمر بدر. يبتسم بل يضحك. إنه خفيف. أضعه بين أسناني وأخدشه، يطل لون الألمنيوم الأبيض، فأصيح. أخبر العجوز باكتشافي، فتنقض عليّ.

إنها تهجم عاضَّة ذراعي، مرددة أنني لص، لص يخبرها كذباً أن قمرها الذهبي ليس إلا زراً من معدن رخيص، ليسرقه.

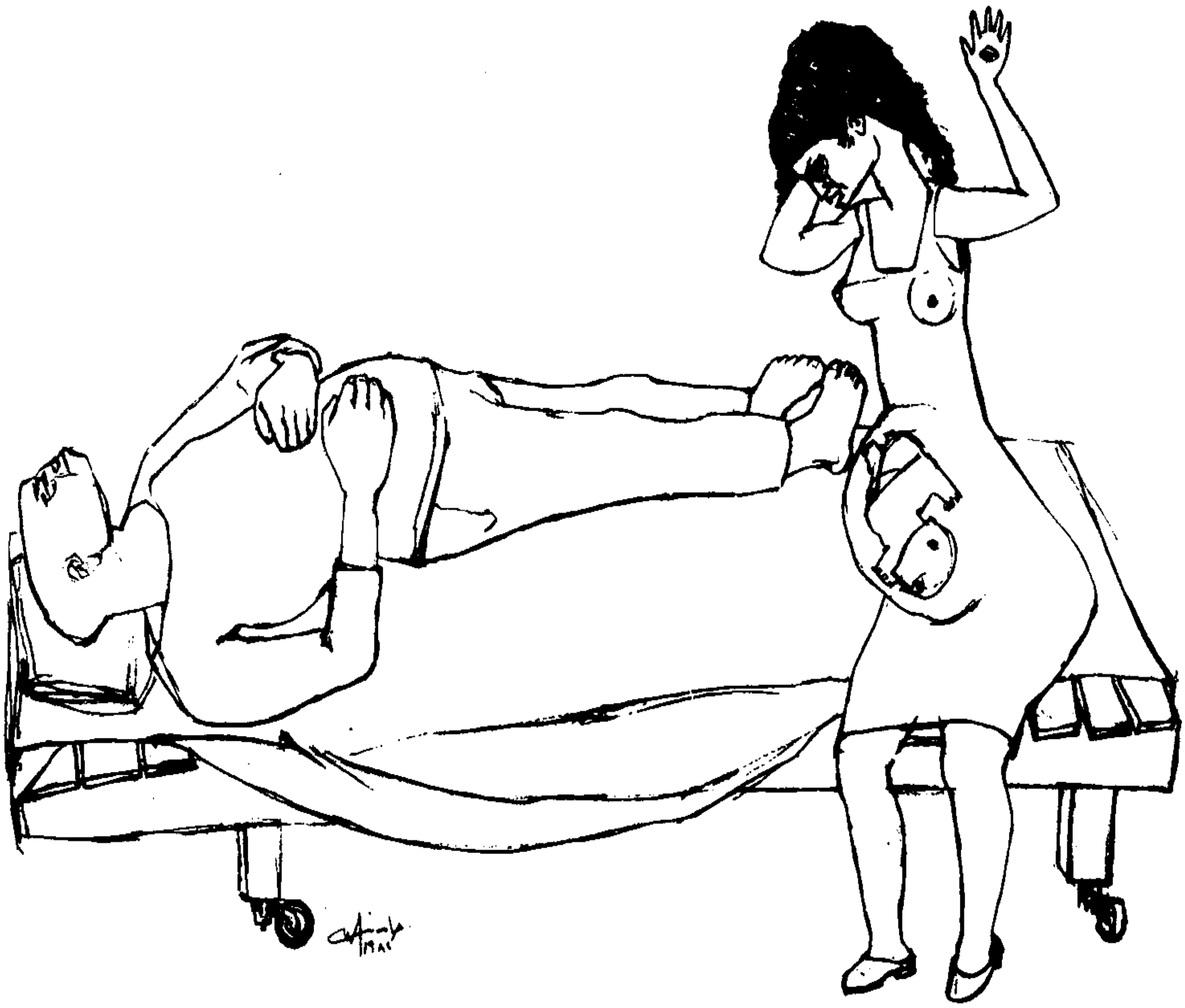
أعطيها الزر، وقد صرت أصرخ من شدة الرعب، وهي قد جُنّت. تعضني، بل تكاد تأكلني.

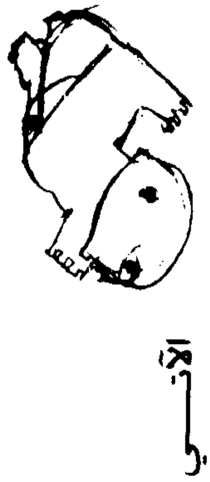
وأجري مبتعداً عنها، وهي تقذفني بما تلقاه تحت قدميها العاريتين.





الآتـــي

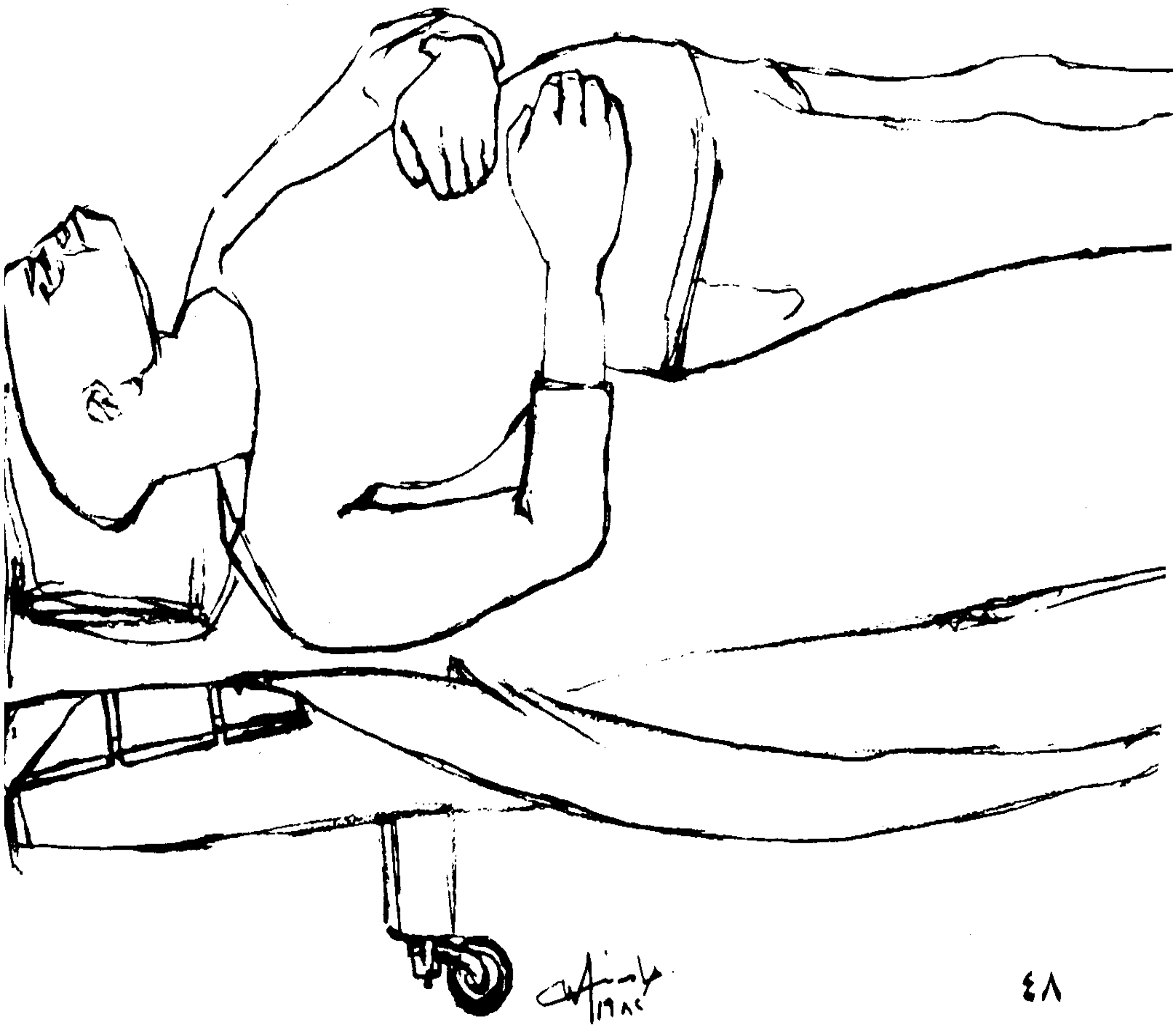




لأني كنت الطبيب المناوب يوم مات نعيم بالسل، فقد كان عليّ أن أسجلَ لحظةَ الوفاة وسببها، وأن آمر بنقل الجثة إلى المشرحة بعد ساعتين. ولم أفهم لماذا ازداد عويل امرأته لوعةً عندما سمعتْ كلمة المشرحة. ولاحظت أنها كانت حبلى، بل في شهور الحمل الأخيرة.

ولأني كنت الطبيب المناوب، وكان عليّ أن أحرس حالة الهدوء بالمستشفى، فقد أمرتُ امرأة نعيم أن تكفَّ عن الصراخ والعويل. ولم أفهم لماذا لم تكف رغم أنني أكدت لها أن الجثة لن تُشَرَّح، بل ستبخر وتُرشّ بالكبريت فقط.

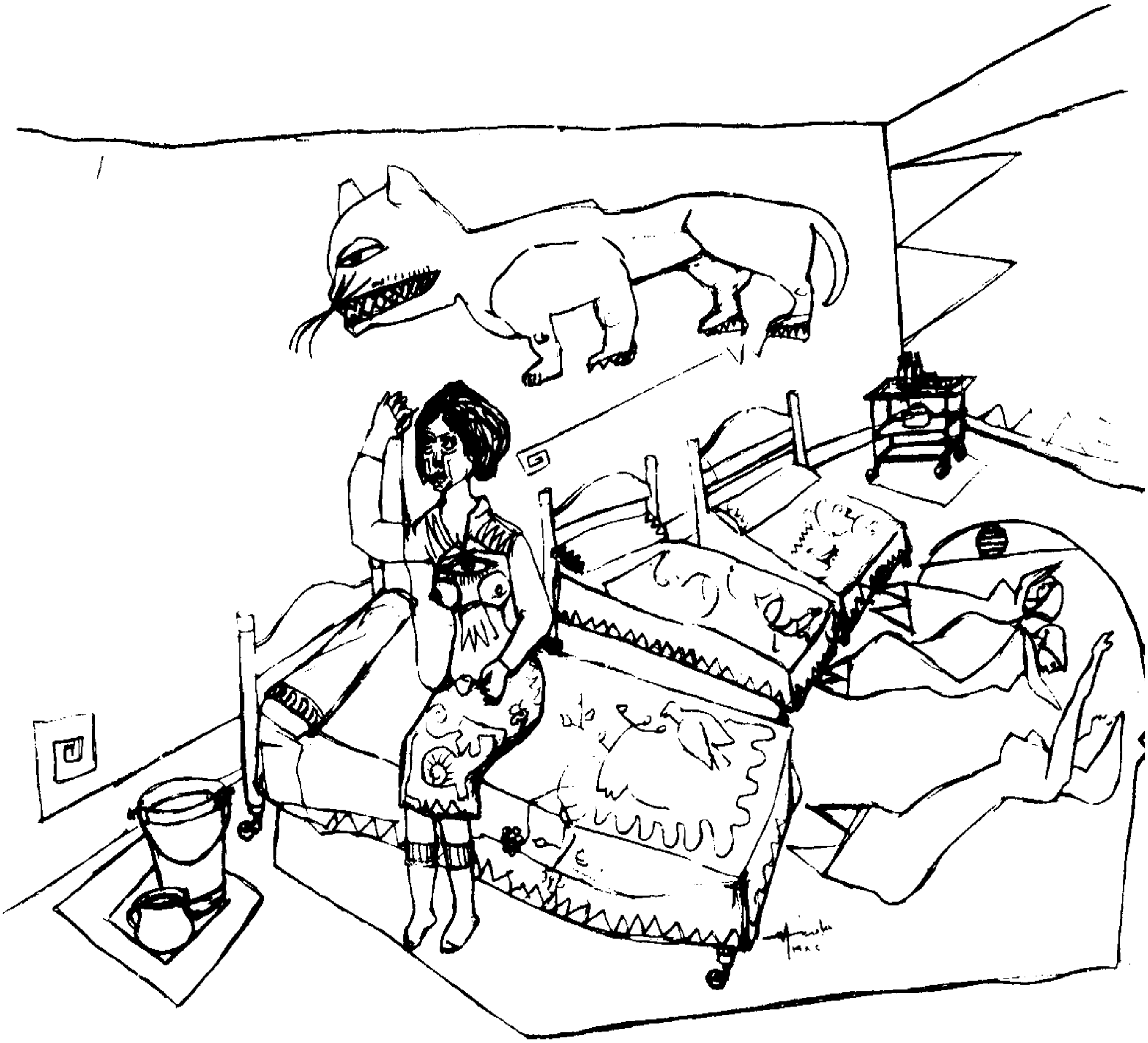
وعندما لم أفلح في إسكاتها بالأمر ولا بالرجاء، فقد ناورتها وأنا أشير إلى بطنها.. قلت لها إنني كطبيب، أعرف أن صراخ الحامل خطر على الجنين. ولم أفهم لماذا في هذه المرة فقط كفّت، رغم أن دموعها لم تنقطع. وكانت تفرد راحتيها تحت البطن المنتفخ، كأنها تحمله برفق.



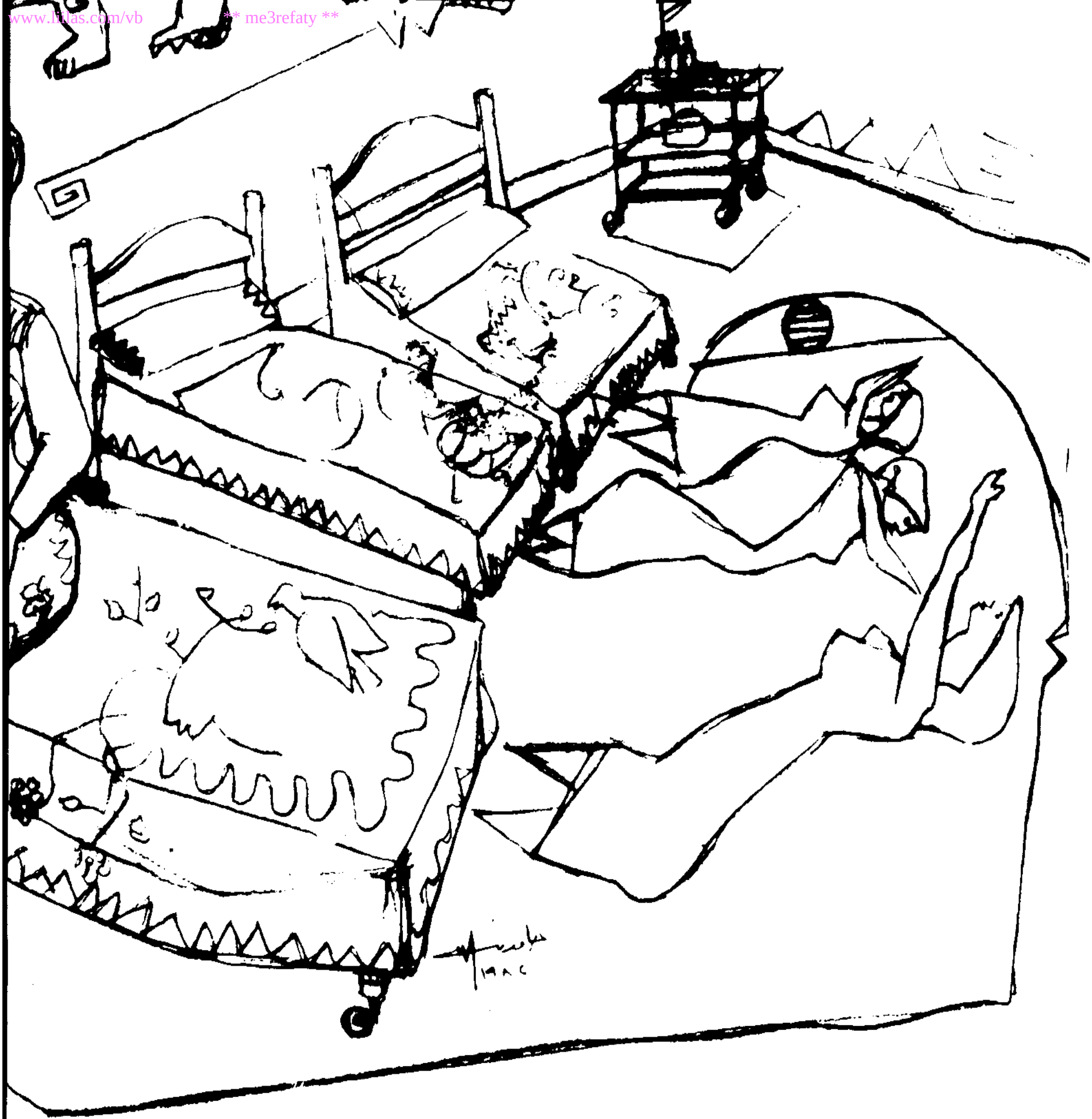




عنبر البنات

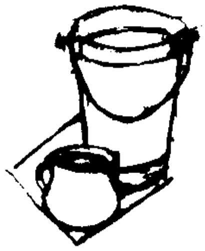






عندما قلت لها إنني الطبيب الجديد، وقلت لها ألاّ ترتبك، وسألت عن الأخريات، ذاكراً بعض الأسماء التي قرأتها فوق الأغطية غيّمت قائلة إنهن ذهبن، ولما رأتني لم أفهم، أردفت تقول: «تعيش أنت». ثم ابتسمت خجلاً، إذ رأتني أنظر إلى ذيل جلبابها، وقالت: «لقد أخذوا كل المفارش.. ولم أجد ما أطرزه غير..»

وقرأت على ذيل جلبابها كلمة «للذكرى» مطرّزة بلون سماوي، وسط وردتين خضراوين وتحتها كانت إبرة التطريز، معلّقة تتأرجح - لا تزال - في خيط وردي يخرج من حرف تمَّ تطريزه.. عرفت بعد ذلك أنه كان الحرف الأول، من حروف اسمها.







بضع زهرات





لقد أحضروا الرجل إليّ، وقد أحاطوا به يكبلون، وهم ثلاثة: الجنايني، وأحد الممرضين، وعامل البوابة. قلت لهم أن يتركوه، وعندما انفضّوا من حوله، رأيته يقبض على بضعة أعواد رفيعة خضراء، تنتهي ببضع زهرات بيجونيا حمراء، كان يضمها إلى صدره وهو يرتعش، وعندما نظرت إلى وجهه، وقد كان يعكس إحساساً بالذنب والتعاسة، عرفته.. « سليمان العجوز ». لقد مررت عليه في سريره بالأمس، وقد دخل في أقسى حلَقات السل. إذ اكتسى جلده بصفرة ترابية، وصار وجهه جاف القسمات كوجوه الموتى.

سألت الثلاثة عما فعله سليمان العجوز، فقالوا إنهم ضبطوه يقفز فوق سور الجنينة ويقطع البيجونيا الحمراء، وعندما كنت ألتفت إليه لأتبين ردّه، رأيته مطرقاً كأنما يعترف، فسألته لماذا فعل ذلك؟ قال وهو يرتعش، إن بعضَهم أخبره بوصفة: لو أنه أحضر ورداً أحمر، ووضعه بجانب خده، لذهبت الصفرة وتورد الوجه. ضحكت، وسألته عمن بالتحديد أخبره بذلك، فأشار إلى نفسه!

وقلت للثلاثة أن يتركوه، بعد أن أخذت منه الأعواد وزَهراتها ورجوته ألاّ يصدق ذلك، وألا يفعله ثانية، وأن يذهب إلى سريره وينام.

* * *

في حجرتي وأنا وحدي، لا أدري ما الذي دفعني لأن أفعل ذلك. كنت أقف أمام المرآة، وأمسك بزهرات البيجونيا الحمراء، وألصقها بخدي، فأرى وجهي يتورد، إذ تضوي فيه الشعاعات المنعكسة عن حمرة البيجونيا. وعندما كنت أبعد عن وجهي الزهرات أراه يشحب فأعود أقربها. ومكثت أفعل هكذا ساعات، حتى جاءت الممرضة، وطلبت مني أن أصعد إلى سليمان العجوز، وأخبرتني أنه في حالة متأخرة.

وقلت لنفسي.. آخذ إليه الزهرات الحمر، لعله بها يفرح، ويسامحني أيضاً.

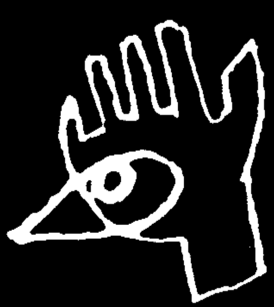
* * *



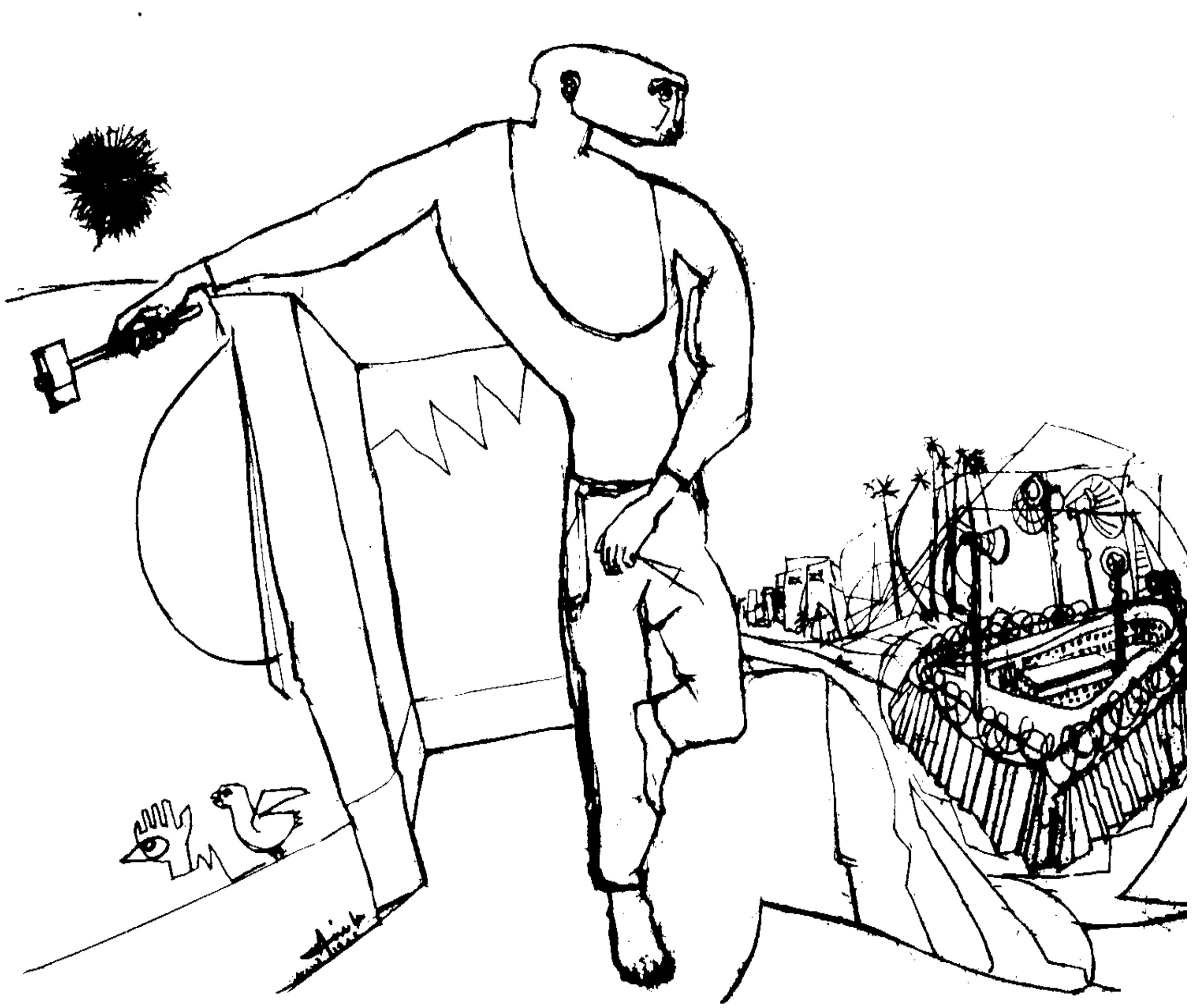


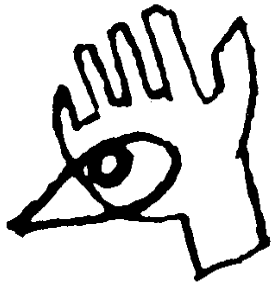
عندما وصلت إلى سريره، وجدته بلا نبض وقد تمدد على ظهره، وإلى جانب وجهه رأيت بضع زهرات بيجونيا حمراء أخرى حديثة القطف تلتصق بخده الذابل، وفي يده الهامدة على صدره كانت قطعة مرآة صغيرة تنزلق لتقع، وكان لا يتحرك.





الفِدائي حمزة



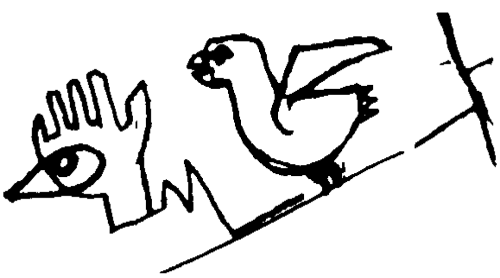


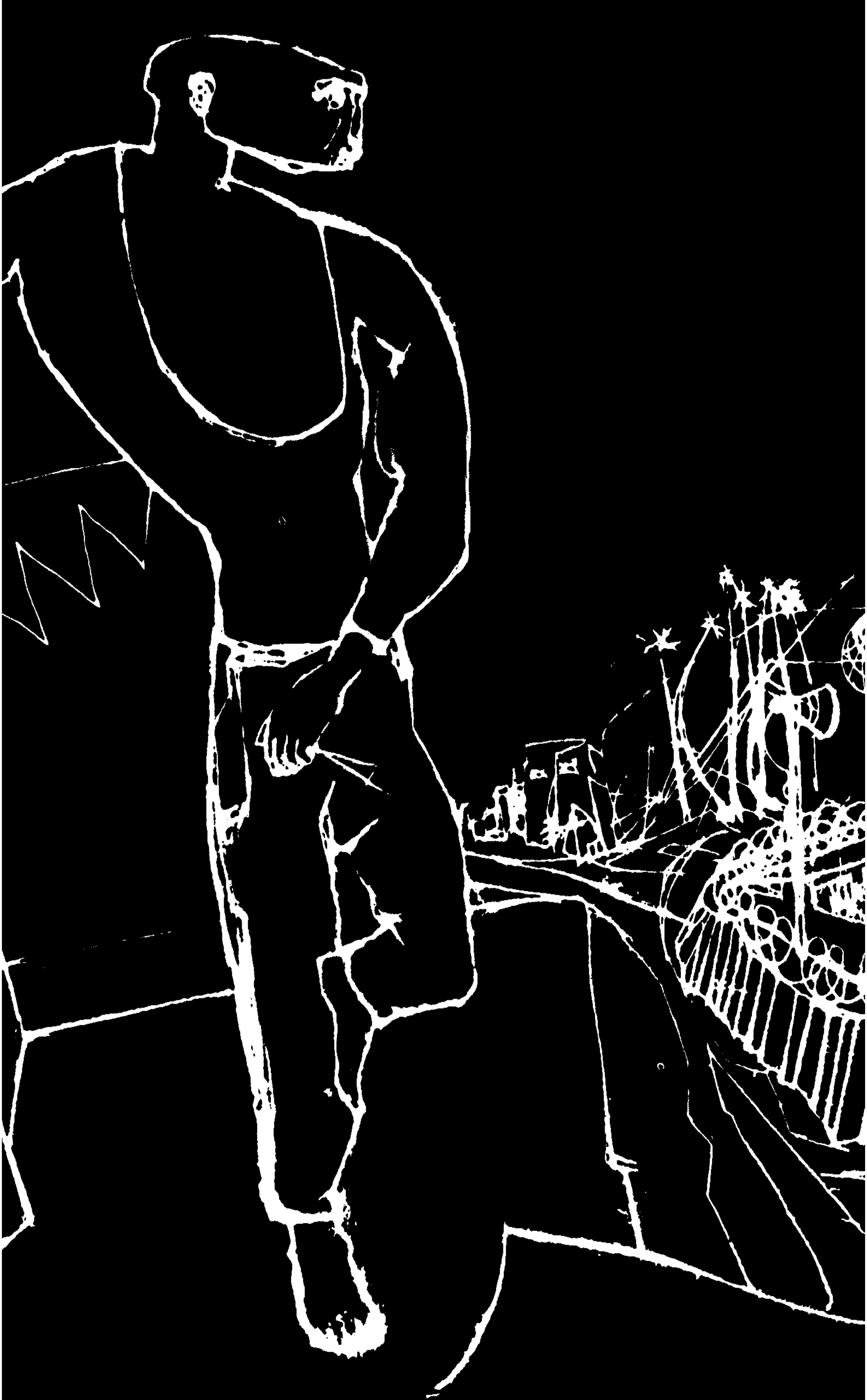
سألت نفسي مستغرباً عن سر توتري هذا المفعم بالانتباه والتشوف، وقلت: ربما لأني سألقى رجلاً خارقاً من بين الرجال: «حمزة اليونس» - عدة أحكام سجن مدى الحياة وهرب!.. حكم بالإعدام، وهرب! وكأن هروبه الأخير من سجن «الرملة» حيث كان عليه أن ينفذ من باب زنزانة مصفح مصفح، ليعبر نافذة مصفحة، ويهبط إلى أرض تمسحها الكشافات وأفواه البنادق، ثم كان السور المكهرب، والسور الثاني، والسور الثالث تحرسه الأبراج المحشوة بالقناصة والرشاشات، وكانت بعد ذلك أرض مسوَّرة تحرسها الهاجاناه، وسماء تقيء طائرات واطئة، وحدود مرسومة بالمدرعات والألغام، ثم كان البحر يترامى.

بعدما تصافحنا وتعارفنا، تعانقنا، وجلست مبهوراً أتأمله بغير تصديق أن يكون «هو»، رأيته نحيفاً أسمر يميل إلى القصر، وجهاً عاديَ الملامح، وصوتاً مشدوخاً لا يرتفع. كان نسخة من ملايين الرجال الذين يهرعون عرقى وراء الأتوبيسات، ويتزاحمون أمام أفران الخبز الأسود، ويتكومون منكسرين أمام أبواب المستشفيات المجانية. لقد أدهشني.

عندما استأذن لينام وغلبه النعاس، كان ثابتاً مستقيماً في تمدده على الظهر، ويتوسد يده برغم وجود وسادة. أدركت أنه نام على أرض زنزانة ضيقة.

ولّما كان البعوض يدخل المكان، فإنه بلا وعي أخذ يحرك قدماً ليهرش بها الأخرى التي تُلسع، وكانت أرجل البيجامة تنحسر عن ساقيه اللتين بانتا غريبتين، فملت أنظر وألمس: لقد انحسر الجلد السويّ، وامتدت التليفات آثار الجروح الغائرة القديمة التي اندملت: دفقة رشاش قريب وثلاث رصاصات أصابت من بعد، أثر كيّ بالنار، وتر عضله مقطوع، وبروزات تتحرك طيها كريات صلبة.. لعلها كانت رش بنادق فضّ المظاهرات، أو نثار قنابل البلي المحرمة.





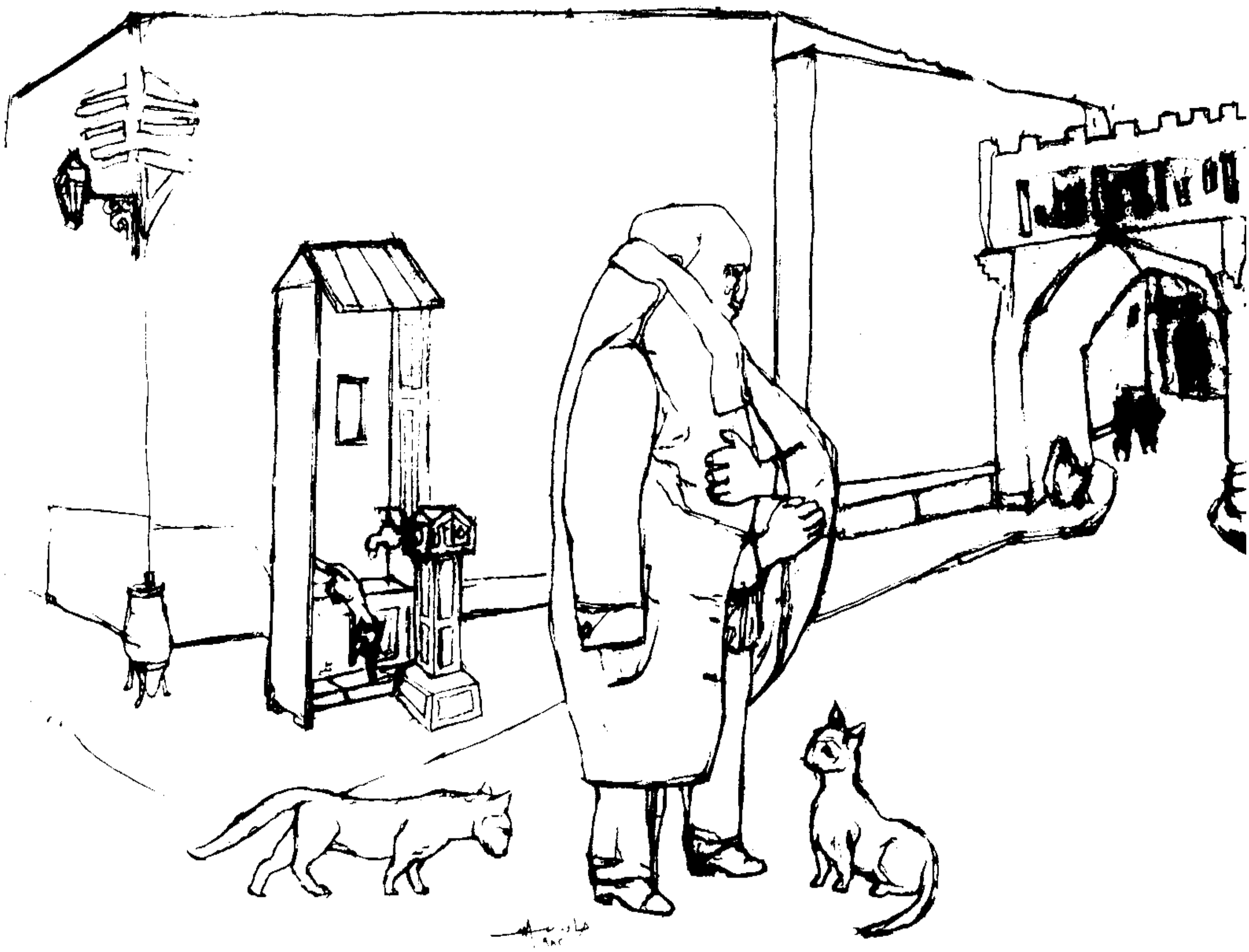


عندما نمت أخيراً، وكنت حديث العهد بالتمدد، ثابتاً مستقيماً على الظهر، وتوسد اليد رغم وجود وسادة، رأيت فيما يرى النائم.. رأيت طائرات قذرة السواد، تحجب قرص الشمس، وتلقي بدانات قذرة السواد مثلها على الشوارع والناس والبيوت. وكنت أصرخ فلا أسمع صوتي وأرى رجالاً أليفي الملامح نحافاً ممصوصين سمراً، يركضون وراء الأتوبيسسات للحاق بها، وكانت في أيديهم أرغفة بيضاء كبيرة، وفي أكتافهم كانت البنادق ترتج على إيقاع الركض.





في الليل الصقيع





في هذا العام جاء إلى بلدتنا الحارة الطبع شتاءٌ لم نر صقيعا مثله، وبشكل شخصي كان عندي أصقع ما يكون حتى أنني أود ألا أرى أبداً مثله.

كان صقيعاً، وكان الليل أصقع. وكان الليل في الشوارع أصقع أصقع، لكنّ هناك أموراً أصقع من كل شيء تجبرنا على الخروج إلى الشوارع، حتى بعد منتصف مثل هذا الليل.

كنت في الشوارع أضيع متسللاً وقد دسست رأسي في طاقية لا تبين منها إلا العيون، وحشوت عودي في كل ما أمتلك من دثار، وبرغم هذا فإن البرد كان ينفذ ليطعنَ لحمي وعظامي بُمدًى من صقيع، فأتقلص، وأتحرك معقوفاً أجوب الشوارع الخالية.

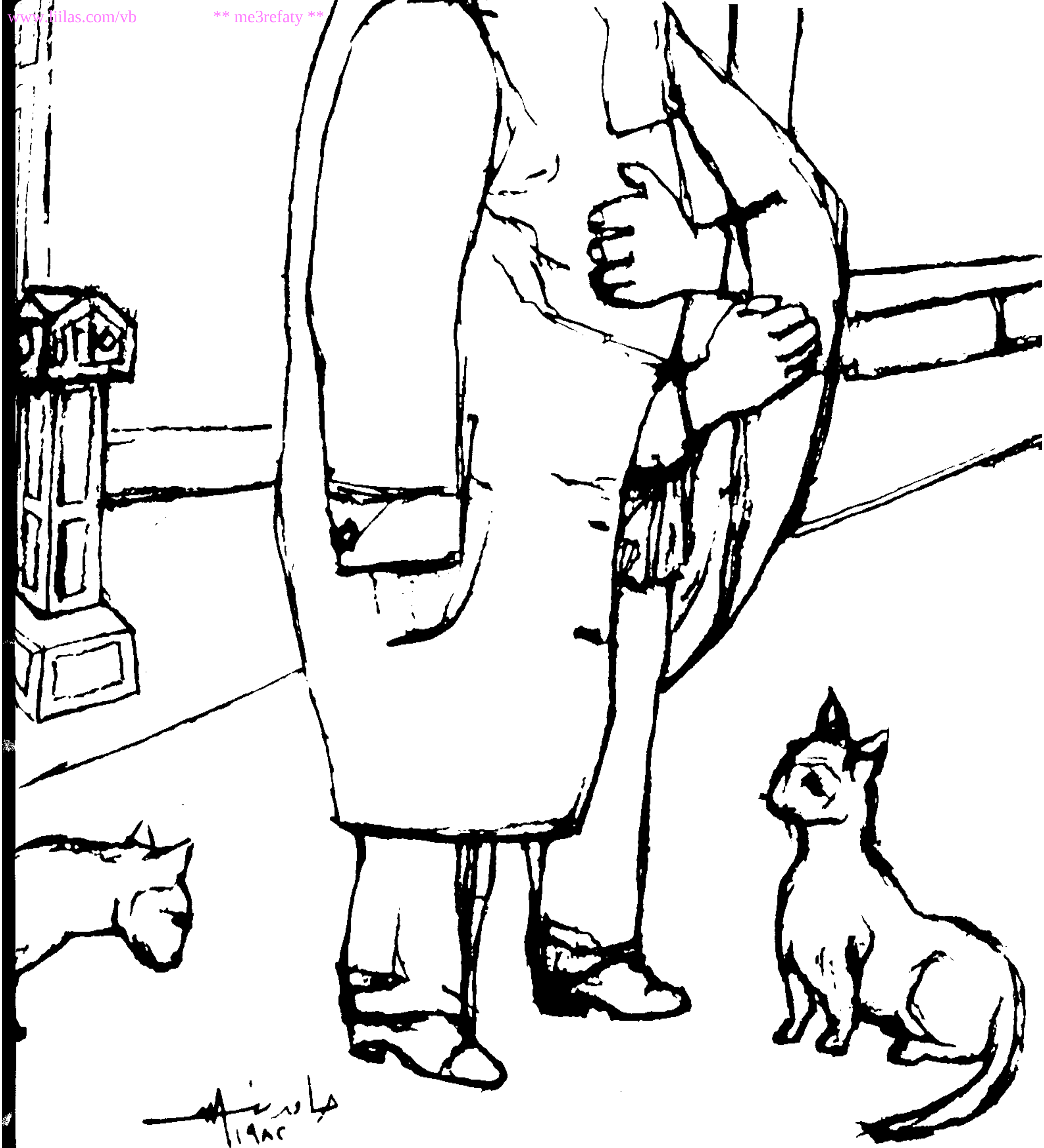
كان الأسفلت يلمع بالبلل، ويبدو كصفحة من الرصاص تحت ضوء مصابيح الزئبق، وكانت البيوت تلتف بغبش رصاصيٍّ صنعه الصقيع من بخار الأنفاس التي تتسلل خارجةً من فرج البيوت لتتثلج.

وأسرعت في هذا الليل الرصاصي كله، لعلَّ الإسراع يجلب إلى بدني دفئاً ما، لكني وسط شارع الأستاد الموحش أبطأت الخطوة، إذ رأيت كائناً صغيراً يتحرك وقد التف بهالة رصاصية من الغبش.. كانت قطة.

وعادة تهرب مثل هذه الكائنات الضالة عندما يقترب منها الإنسان، لكن القطة لم تهرب عندما اقتربت منها في هذا الليل الصقيع، بل إني هششتها، وظلت قريبة مني ترنو إليّ بلا حراك. بل أكثر، أنني حاولت ركلها فأفلتت الركلة بقفزة، وعادت إلى مكانها قريبة مني، ترنو إليّ بلا حراك. تحركتُ فتحركت القطة في أثري.. أمشي، تمشي.. أتوقف، تتوقف.

كان رذاذ من بقايا المطر يهمي من السماء أبيض، كالثلج يلدغ. يلدغني، ويلدغها. فإذا توقفتُ تتوقف وتهر وتموء كأني بها تحثني: «امش يا إنسان.. لأمشيَ وراءك» وكأني بها ترجو: «رح بيتك وخذني» وضحكت، ضحكت ضحكاً مكتوماً كالبكاء، إذ لم يكن لي بيت في هذا الليل الصقيع، لم يكن لي إلاّ التجوال وأنا مفلت من بعض الأشرار.

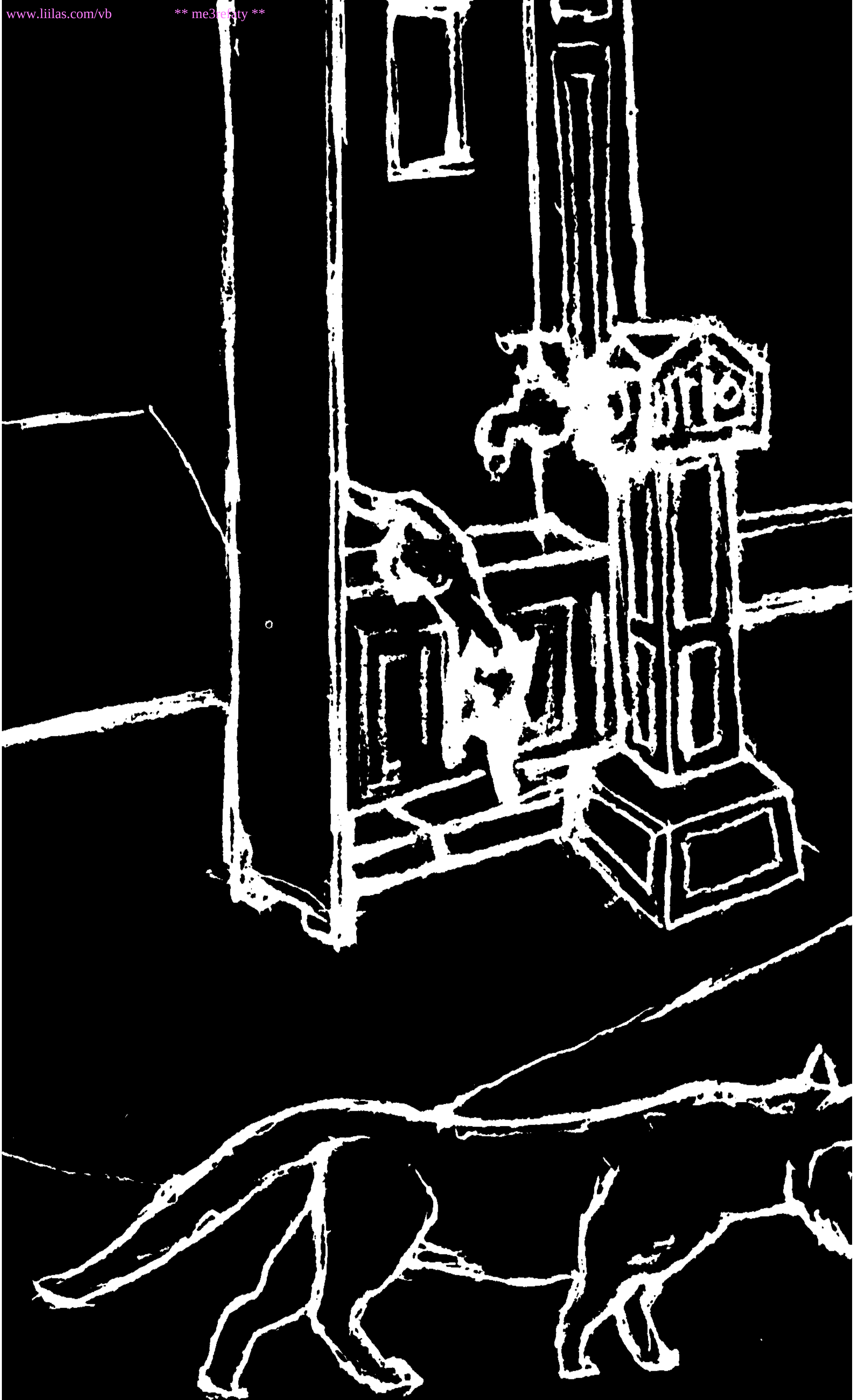




سرتُ، وسارت القطة خلفي، ثم جاء إليّ معها، كلب ليفعل الشيء نفسه. والغريب أنهما لم يتشاجرا كعادتهما. بل ظلاّ على وفاق بتبعاني.

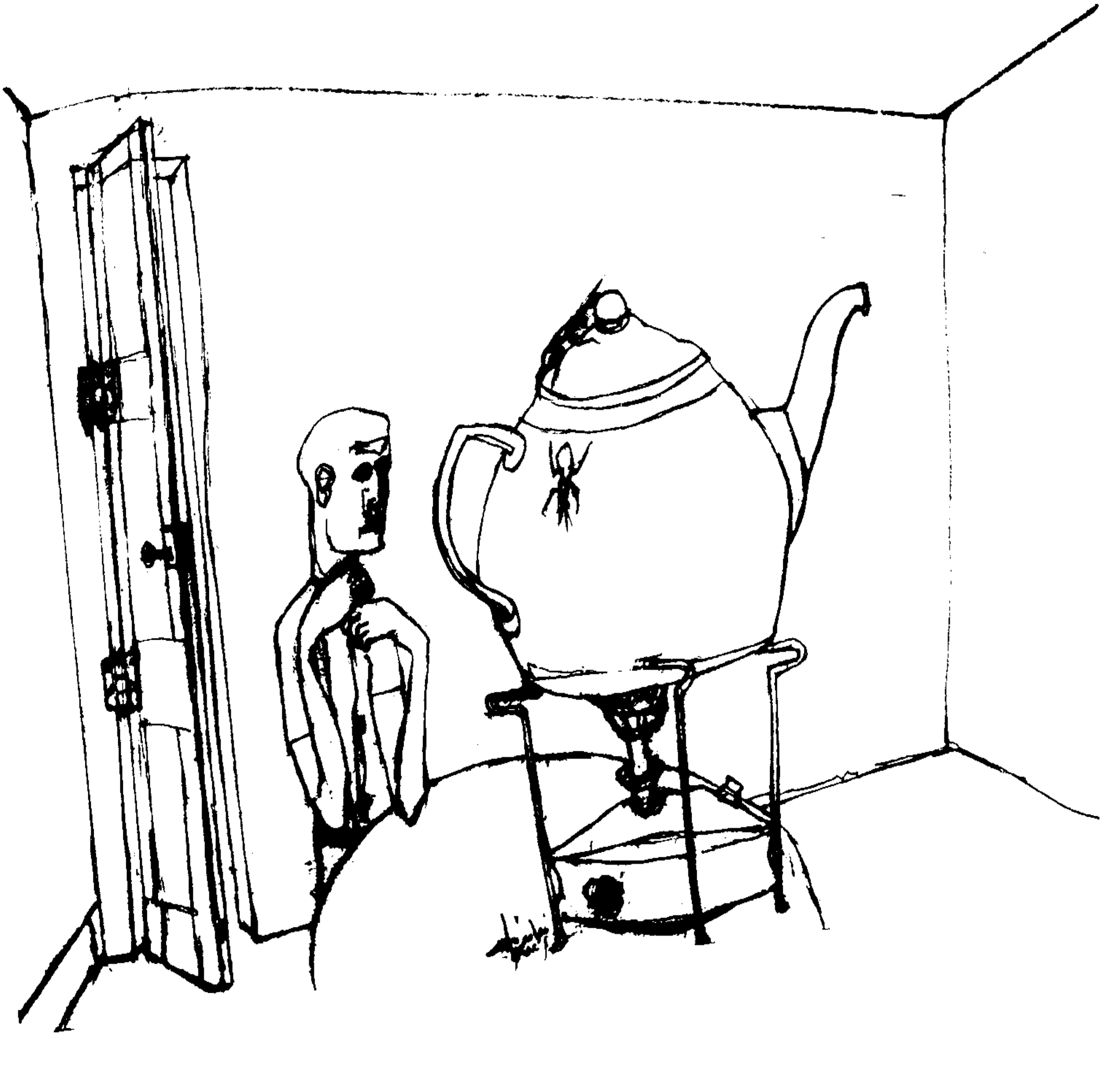
وبعد ثلاثة شوارع من التجوال أصبح يتبعني ثلاثة كلاب وقطتان، وأخذت أمرّ بموكبي هذا الغريب في شوارع هذا الليل الصقيع.. تزْوَرُّ عنا البيوت، وتتعزى ببشر آخرين بلا بيوت تكوروا في خرق فوق الأرصفة، ولصق الجدران، وعلى عتبات أبواب المساجد المغلقة.

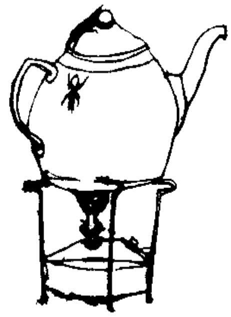
وكنت مبترداً أتعجل مجيء الصبح الذي وحشْتُ له، لعلّي أتدفأ، وأذوب في زحمة الناس.





فوق سطح ساخن





وأنا أُعد شاي الصباح، لاحظت قطار النمل يتحرك على الجدار القريب، أمامي. مددت يدي مصوباً سَبّابتي إلى منتصف القطار، قاصداً مشاكسة النمل، أو ملاعبته، لكنني وجدته في جنون الفزع - من إصبعي! - يفر في كل اتجاه، حتى أن بعض النمل كان يسقط عن الحائط. ولمحت نملتين وقعتا على جسم (الغلاية) التي تسخن.. ورحت أراقب النملتين في المحنة: الغلاّية تزداد سخونة، والنملتان تحاولان الخلاص.. إنْ هما عمدتا إلى الهبوط وجدتا نار الموقد تفتح لهما الفم الحارق. وإن صعدتا حتى الفوهة. يرجعهما الماء الذي بدأ بالغليان يفور. والسطح الذي تفران عليه يسخن.. يسخن..

تتلهوج النملتان فراراً في كل الاتجاهات، تصعدان، تهبطان، تتصادمان، تتناءيان، تقتربان، ثم فجأة يدركهما السكون؟!

هل هي لحظة التسليم للموت، أم هي لحظة للتفكير في مخرج؟

أنحني مدققاً النظر، فألمح النملتين ترتعشان على سطح الغلاية المحميّ. إنهما على وشك الاحتراق.

وبينما كانت الغلاية تئز، ويلتهب سطحها، تفاجئ عينيّ واحدةٌ من النملتين بحركة لا بد أنها كانت ذروة المخاطرة بالنسبة لها، إذ تقفز في الهواء مبتعدة، بينما كانت الأخرى، في حصار المحنة، تسكن مستسلمة.. تتقلص محترقة، وتتفحم. تصير نقطة رفيعة سوداء، تتلاشى.. تتلاشى.

وأبحث عن المخاطرة، التي قفزت من دائرة الموت الأكيدة إلى فضاء الهواء المجهول (بالنسبة لحجمها)، فأجدها.

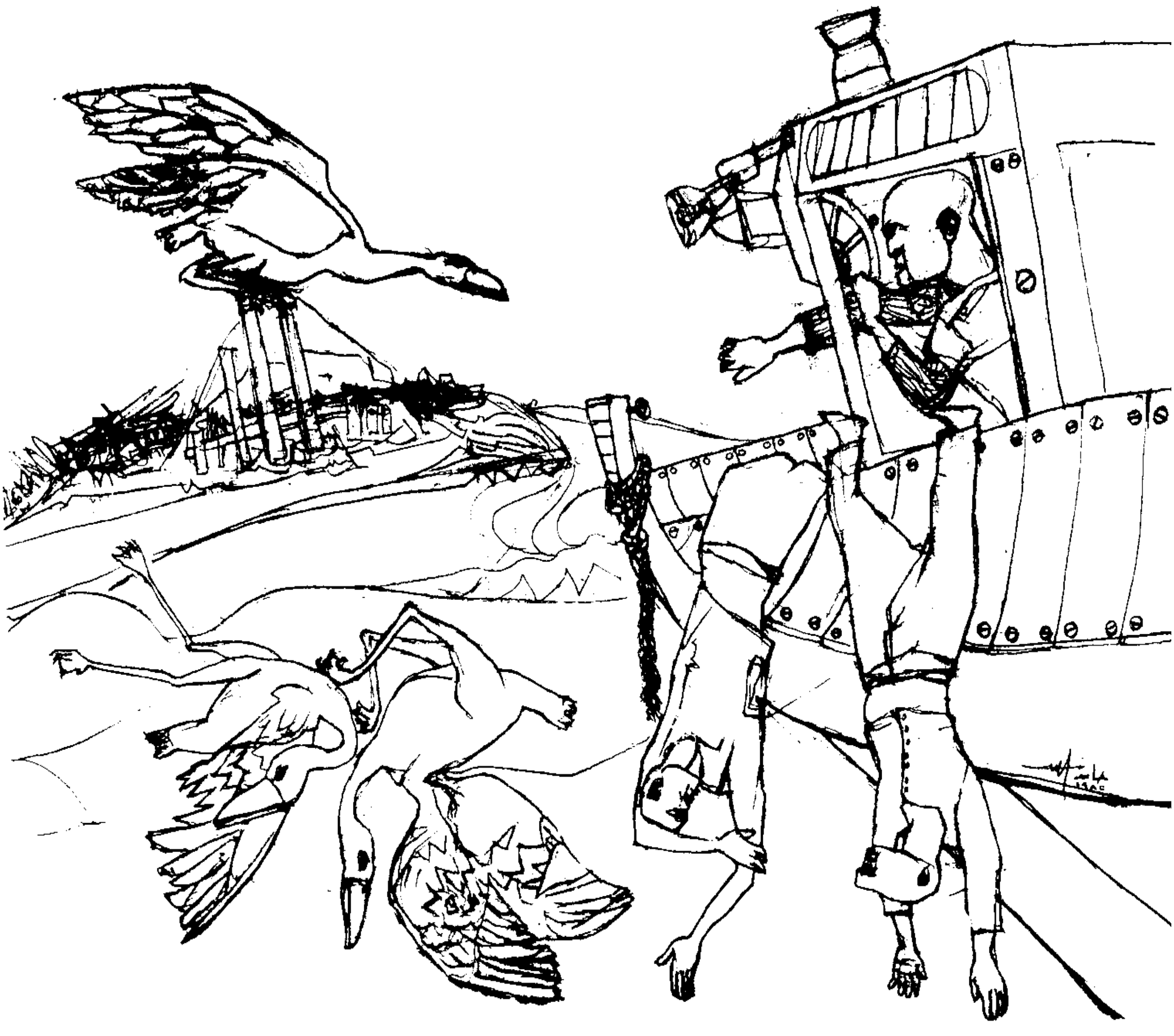
ها هي ذي تجري - في الأمان - على رخامة المطبخ.. أمدّ لها يدي برفق، برفق. تصعد على إصبعي، وأنقلها إلى الحائط، ثم أتابعها ببصري، وهي تجري.. تنتظم في قطار النمل الذي عاد يتكون من جديد.







مذبحة النوارس





كان الطقس يوحي بالانقباض، ونحن نتحرك بزورق المسعفين إلى السفينة المنكوبة. كانت السماء ملبدة بالغيوم حتى الأفق، والشمس مختبئة، وقد لاحظت - من وراء زجاج قمرة الزورق - أن نوارس الميناء لا تظهر حول السفن الراسية، ولا عند الأفق. فخرجت إلى السطح، أستجلي سر غياب النوارس.

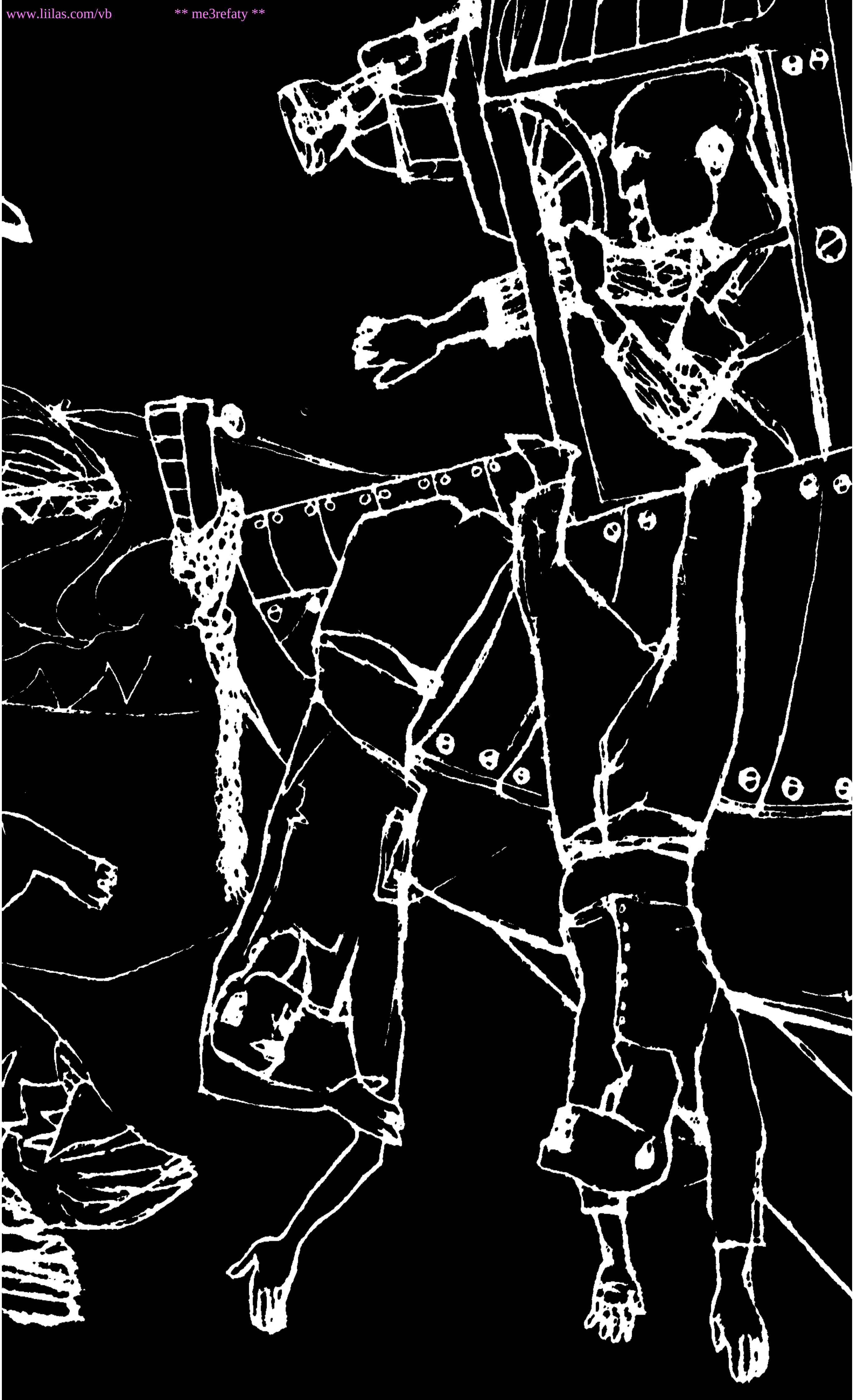
كان الزورق مسرعاً، يكاد أن يطير فوق سطح الماء، ناثراً على جانبيه الرشاش، وأفزعني أن أرى الموج يأتي بمئات الجثث الصغيرة البيضاء لنوارس ميتة، راح رجل من بحارة الزورق، اعتلى المقدمة، يشتتها بمذراة طويلة ويبعدها إلى الأجناب، حتى لا تشتبك أجسادها بالرفاسات، وتتعطل. وكنت مندهشاً لهلاك كل هذه النوارس.

لم تنقطع جثث النوارس عن المجيء يحملها الماء، وكنت أفكر: هل ماتت كل النوارس؟ هل ماتت كل هذه الطيور البيضاء، ذات الأجنحة الطويلة المدببة، والأصوات التي تشبه ضحكات خشنة. هذه الطيور التي كنت أراها تحوّم حول السفن الواقفة، تنتظر أن يلقي البحارة بفضلات الطعام إلى الماء، فتهوي متزاحمة، متصايحة، تلتقط طعامها من النفايات التي تطفو.

هل ماتت كل هذه النوارس؟ ومات النورس الذي أراه هناك: يلعب وحيداً عند تلاشي حاجز الأمواج، في مواجهة البحر المفتوح؟

وكنت أشعر بتشاؤم خالص، وأنا أصعد سلم السفينة المنكوبة مع المسعفين.

على ظهر السفينة المنكوبة رأيت جثثاً أخرى للنوارس، تتناثر بين جثث البحارة، وكنت أردد مرتاعاً: إنها مذبحة. وعرفت أن بحارة السفينة تناولوا طعاماً مسموماً، فمات من مات، وأمكننا إنقاذ البعض، ولحقتْ بالموتى نوارسُ الميناء التي أكلت فضلة الطعام. كانت رائحة الموت خانقة، فرُحت - بعد انتهاء الإسعافات - أصعد درجات السُّلَّم الخارجي المحيط بمنصة الربان، إلى السطح العالي، أبحث عن نسمة بحرية ليس فيها رائحة الموت، وقد كانت الغيوم تنجاب، والشمس تسطع.





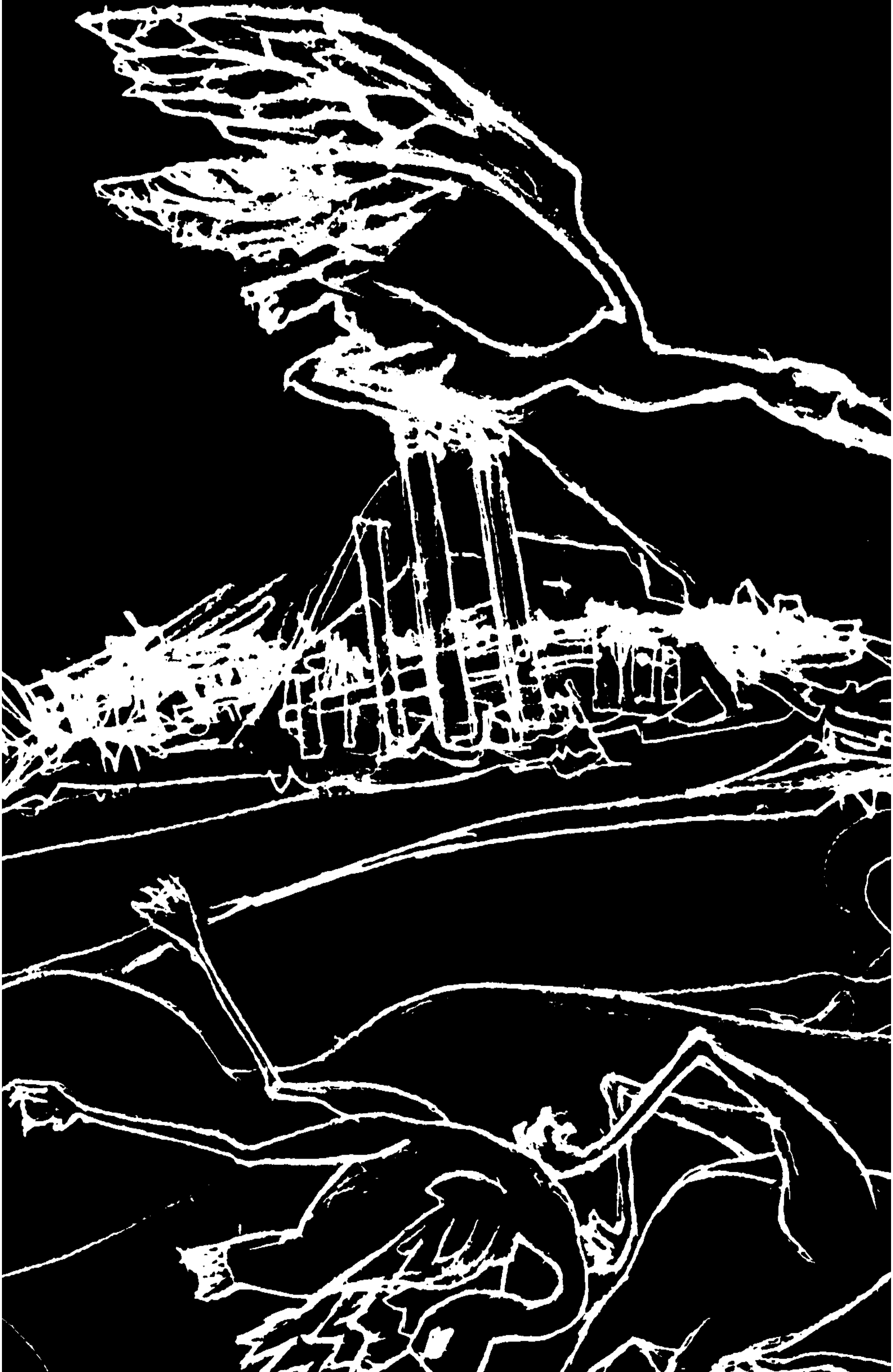
« لم يمت »، هكذا هتفت.

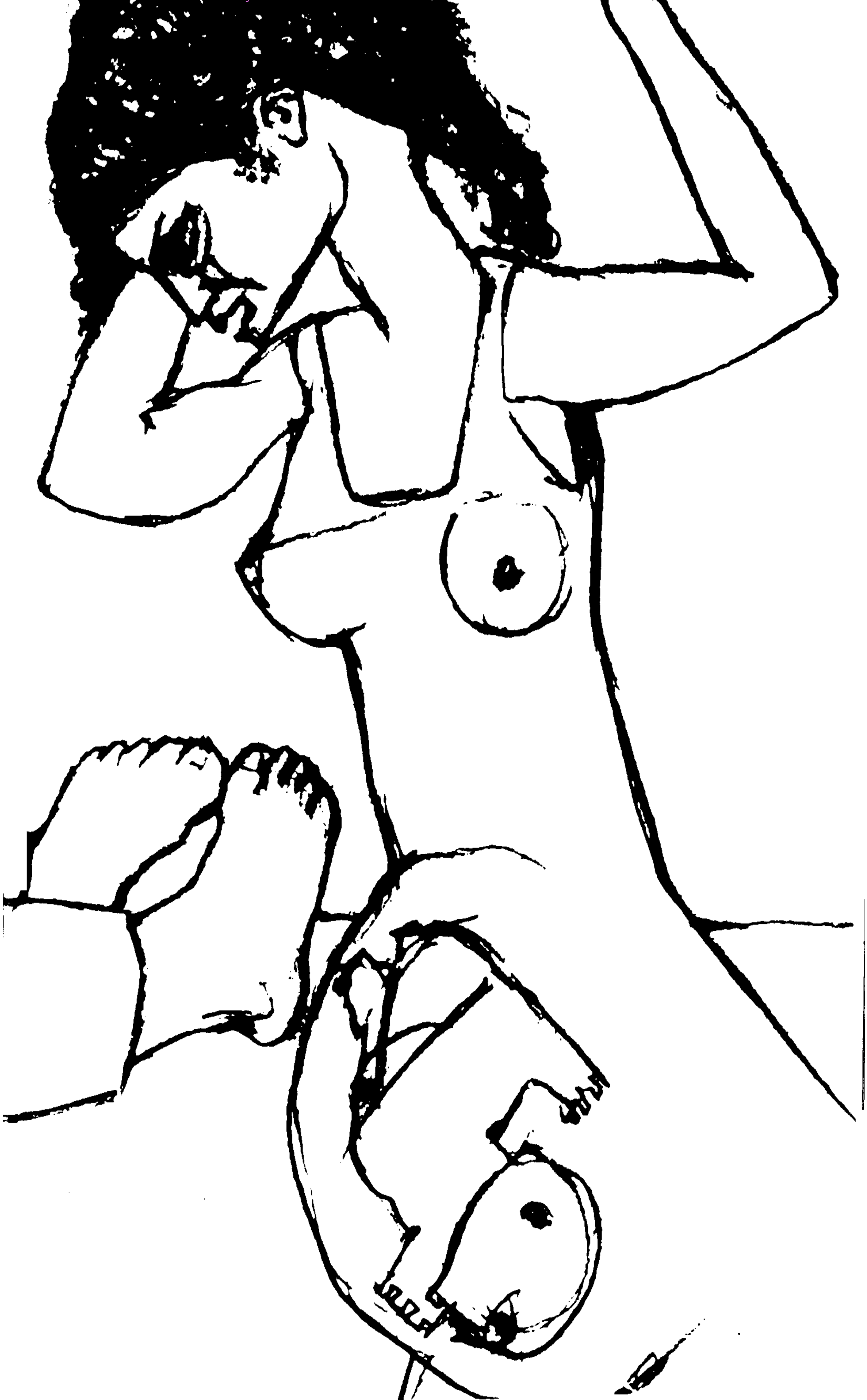
« لم يمت » هتفت قافزاً بفرح مفاجئ، وأنا أشير إلى الأفق.

هتفت إذ لمحته: هذا النورس الذي اعتدت رؤيته منفرداً، يلحق، وينقض؛ ثم يستريح وحيداً على آخر صخرة من صخور حاجز الأمواج.

إذن كان هناك، لم يغب أبداً عن مكانه البعيد العالي. لقد غاب عن عينيّ، فقط، لأنه كان مختفياً ببياضه في بياض السحب المتراكمة عند الأفق. أدركت هذا، وأدركت وأنا أبصره مؤتلقاً ببياضه إذ يغمره ضوء الشمس، ينزلق على الزُرقة الخفيفة للسماء التي صفت، ثم على زرقة البحر الداكنة ينقض. أدركت أنه كان، ولا يزال: ينتزع طعامه: سمكاً طازجاً طازجاً، من فم البحر المفتوح الهدّار.

ثم خالط فرحي به حزن شاحب، أخذ يتكاثف وأنا أتمتم: لكنه واحد فقط. لكنه واحد فقط. وكنت أفكر: لو أن معه آخرين، آه لو أن معه آخرين، ولو أنثى نورس واحدة؟ ورحت، حزيناً مرة أخرى، أهبط، نازلاً عن سطح المنصة العالي، إلى ظهر السفينة المنكوبة.





الآتـــي

الفهرس

طباعة : مؤسسة دار الريحاني - هاتف ٨١٤٩٨٨ - ص.ب ٥٣٧٨ / ١٣

« وبعد ثلاثة شوارع من التجوال أصبح يتبعني ثلاثة كلاب وقطتان، وأخذت أمرّ بموكبي هذا الغريب، في شوارع هذا الليل الصقيع.. تَزْوَرُّ عنا البيوت، ونتعزى ببشر آخرين بلا بيوت تكوروا في خرق فوق الأرصفة، ولَصْقَ الجدران، وعلى عتبة أبواب المساجد المغلقة.

وكنت مبترداً أتعجل مجيء الصبح الذي وَحِشْتُ له، لعلّي أتدفّأ، وأذوب في زحمة الناس.

وها هي ذي سموات فيها شموسٌ وعصافير، وبحارٌ تطل منها عرائس البحر، وصحارى تركض فيها الغزلان، وغاباتٌ بشجر وثمر وحيوان وطير.

تلك حياتنا على الأرض الآهلة بالأحياء وبفتنة الحياة، كما يصورها الدكتور محمد المخزنجي في « الآتي »، ونحن نتباغض ونتشاجر. قصص بسيطة موجزة لم تعرف بعدُ التعقيد والتركيب، شفافة تكشف عن عمق كامن.

وهو عالم « مكتبة القصة العربية »، يؤلفه لك القصاصون والروائيون في كل قطر عربي. ويرسمه لك اليوم حامد ندا، شيخ المصورين في مصر.